

اخترنا لك ...

١٧

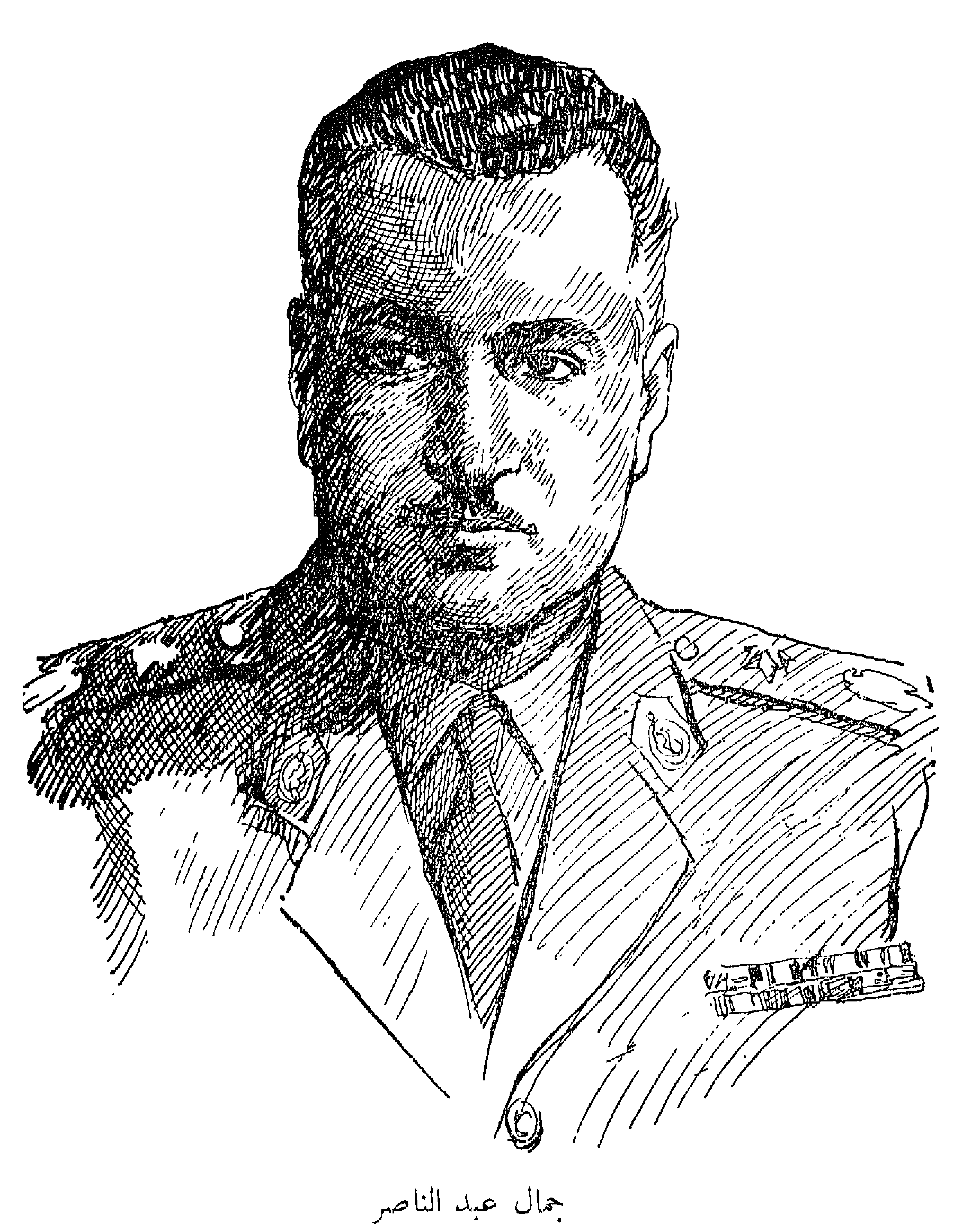
مصر ورسالتها

تأليف

الدكتور حسين مؤنس

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر



جمال عبد الناصر

مصر مصدر الإشعاع الحضارى فى العالم

بقلم الرئيس

جمال عبد الناصر

منذ فجر التاريخ ، ومصر تشع على العالم أقباساً من العلم والمعرفة ، وتحمل فى يديها القويتين مشعل النور والحضارة .

فمن مصر انبثق إشعاع التوحيد ، توحيد الإله الأعظم ، فلم تشرك به أحداً ، وبذلك زعزعت رواسى الوثنية ، وهزت دعائم عبادة الأصنام ، وحررت البشرية من عبودية الحجر ، وانطلقت بالروح إلى أسمى درجاتها ، وجلتها فى أروع صورتها ، وصار اسم أخناتون علماً على التوحيد والتحرير فى عصر ساده الظلام ، وخيمت عليه الأوهام .

وفى مصر ظهرت اليد الآسية التى خففت من آلام الإنسانية وأسقامها حيث تقدم الطب وسما فن الجراحة ، وأقدم الأطباء المصريون على إجراء عمليات ناجحة كانت الخطوة الأولى فى بناء دعائم الطب الحديث .

وكانت مصر الأمة العبقرية التى تقدم على يديها فن البناء والهندسة ؛ وهندسة الأهرام وروعة بنائها آية الآيات على هذه العبقرية الفذة .

وهى مصر التى جابت أساطيلها البحار حاملة المعرفة والقوة والفن إلى جيرانها فى الشمال والجنوب والشرق والغرب .

وهى مصر التى ترعرعت فى جوها الفنون على اختلاف ألوانها ، وترعرع فيها الأدب ، شعراً رفيعاً رائعاً ، ونثراً قصصياً جميلاً ، وترعرع فيها فن النحت وازدهر فن النقش والزخرفة حتى جاوز الإبداع والروعة ، وإذا هو اليوم المثل الذى يحتذى ، والنموذج الذى يحاكى .

فهذه معابدهم وقبورهم لا تزال حتى اليوم غاية فى الكمال والإبداع، حتى إنه ليخيل للرائى أن الفنان قد غادرها بالأمس القريب ، وإن امتدت فى أعماق الزمن إلى ستة آلاف عام .

وهى مصر التى احتضنت المسيحية منذ أن بزغت ، وحفظت لها روحها وطابعها ولولاها للقيت المسيحية مصيراً غير هذا المصير .

بل هى مصر التى اعتنقت الإسلام، وذادت عنه ، وحافظت عليه، واحتضنت تراثه ، وظهر فيها عباقرة كان لهم شأن فى الفقه الإسلامى والعلوم والفنون الإسلامية .

وهى مصر التى زادت شيئاً ذا بال فى الحضارة الإسلامية، وأضافت إليها إضافات تذكر لها بالفخر حتى فى عهودها القاسية التى امتحنت فيها ، وتعرضت لأذى عظيم ، مما جعل العالم الإسلامى يقر لها بهذا الفضل ويتوجها زعامة الأمم الإسلامية .

هذه هى مصر فى أطوارها المختلفة ، مصر الإفريقية ، مصر التى تقع فى حوض البحر المتوسط الذى قامت فى ظلاله حضارات وحضارات : الحضارة اليونانية ، والحضارة الرومانية ، والحضارة اللاتينية ، ومن قبل الحضارة الفرعونية .

مصر التى فرضت شخصيتها منذ أن كان التاريخ مبهماً غامضاً ، فإذا تطلع إليها العالم الآن فإنما يقدمها إليه تاريخها الحافل بالأمجاد ، الضارب فى أعماق الزمن .

ومصر التى كانت لها شخصيتها المستقلة ، وطابعها الفذ ، وكيانها المتحرر فى كل عصورها التاريخية هى مصر اليوم ، وهى مصر الغد التى ينبثق منها استقلال فى الخطة وتفرد فى السياسة ، وتميز فى الطابع ؛ وهى الأمة العظيمة التى لم يجرفها تيار الاستعمار فى أوج تدفقه ، وذروة قوته فظل لها طابعها ، وظلت لها مشخصاتها ، وظل لها كيانها .

ولا أعنى بذلك أنها عاشت فى عزلة ، ولم تتأثر بالحضارات المختلفة ولكنى أعنى أن صلاتها كانت دائماً صلات ود وحب ، وأنها كانت دائماً إلى جانب السلام تنشده ، وتتفيأ فى ظلاله .

إن التاريخ لم يعرف عن مصر أنها كانت أمة طامعة أو أمة مستعمرة ، وإنما عرف لها سورتها إذا اعتدى على حدودها ، وانتقص من كيانها ؛ فسياسة مصر اليوم إنما هى سياستها بالأمس ، وما تقرير سياسة اليوم

٨

إلا تأكيد لسياسة الأمس «سياسة الود والسلام »، لا سياسة القوة والانتقام .

إنها السياسة التى ينشدها الرأى العام العالمى ، وهى السياسة التى سينتهجها العالم إن عاجلاً أو آجلاً ؛ لأنها سياسة الأمن والاستقرار ، لا سياسة الغاب والاضطراب .

الأبعاد الثلاثة لتاريخ مصر

هناك مثل يقول : « خلق الله الهولنديين ، وخلق الهولنديون هولندا » ، وهو مثل يطلق على الأمة من الأمم تنشأ فى ظروف جغرافية غير ملائمة ، فلا تزال تكدح حتى تتغلب على العقبات تذلل الظروف الطبيعية وتهيئ لنفسها أحوالا معاشية طيبة . وخير مثل لذلك هولندا فإن أرضها سهل منخفض يغير عليه ماء البحر ويهدد أهله ، ثم إن هذا السهل ضيق لا يحتمل الكثيرين فيظل أهله كذلك قلة يطمع فيهم الناس ولا يعسر غلابهم على الأعداء المكاثرين ، فما زال الهولنديون يقيمون السدود على طول الساحل حتى ردوا عن أنفسهم عادية البحر وأمنوا فى سهلهم. ثم استصلحوا الأرض وحولوها إلى جنة من جنان الدنيا ، ولأزالوا يغالبون العدى حتى قطعوا أطماعهم فى بلادهم ، ثم إنهم لم يقنعوا بذلك حتى عبروا البحار وأنشأوا لأنفسهم فيما وراءها ملكاً شاسعاً ، وأصبحوا من أغنى أهل الأرض وأسعدهم حالا . وقريبٌ من هولندا فى ذلك سويسرا ودانيمرقة .

ولا نستطيع نحن أن نضع بلادنا فى زمرة هذا النوع ، لأن الله خلق مصر وسواها على الهيئة التى هى عليها قبل أن يدخلها أجدادنا الأول وهذه الأرض هى التى صنعت المصريين ، أو هى التى صنعت لهم كل شيء.

هذا النهر المبارك الفياض الذى لا يشبهه فى الفيض والوفرة والجمال إلا نهر أو اثنان ، وهذه التربة الزكية التى تزيد على الذهب قيمة ، حقيقة لا مجازاً ، فإن الذهب يباع مرة واحدة ، أما هذه الأرض فقد أنبتت ألوف السنين سنة بعد سنة ، بل أنبتت فى بعض السنين مرتين ، فاحسب قدر ذلك كله تدرك قيمة الأرض التى تسير عليها ! وهذا الموقع الجغرافى الفريد الذى يعتبر فى ذاته رأس مال ضخم لو وجد من يعرف كيف يستخدمه ، فإننا فى أهم ملتقى طرق على هذه الأرض ، والمرور بأرضنا ضرورة لا يستغنى عنها البشر ، ومجرد المرور له ثمن ، وحسبك أن تلقى نظرة على إيراد شركة قناة السويس من ضريبة المرور وحدها لتكوّن لنفسك فكرة عن « القيمة » الحقيقية لهذا الموقع ، ولتقدر خسارتنا إذ لم نحسن استغلاله فيما مضى ، ولتدرك أيضاً أن حسن القيام عليه واستغلاله ضرورة يستلزمها وجودنا ورسالة مفروضة علينا لخير البشر أجمعين ، رسالة لا مفر لنا من أداء حقها ، ولا مفر لنا أيضاً من الاستمتاع بخيراتها . ومن نعم الله على المرء أن يكون لديه شىء يحتاج إليه الناس فينفع وينتفع ، فإذا لم يفعل هو ذلك فعله غيره قسراً عنه وشقى هو بالذل والحرمان ، كرجل يقوم على عين ماء لا مفر للناس من أن يشربوا منها ، فإذا هو قام على الماء حق القيام وأحسن الانتفاع به ويسر للناس وروده باع الماء بالذهب ، وإذا لم يفعل اقتحم الناس عليه الموضع وشربوا ، وباء هو بالخسران.

كل شيء على هذه الأرض يشرى مرة واحدة إلا الأوطان ، فإن كل جيل من أجيال الأمة لابد أن يؤدى ثمن وطنه ، لابد أن يضحى ويستهدف للموت ليثبت حقه فى أرضه ، فإذا أهمل أمر هذا الدفاع جيل من الأجيال ضاع الوطن ، وكان على الأجيال التالية أن تبذل الثمن مضاعفاً ليسترد الوطن ممن غصبوه . ونحن أبناء هذا الجيل المصرى الراهن لا نزال نؤدى ضريبة أسلافنا ممن ضيعوا هذا الوطن ، وأباحوه للعدى بالفتور والإهمال .

ولكن الانتفاع بهذا الموقع ليس بالأمر الهين . فهو ككل شيء قيم فى هذا الوجود له ثمن لا بد أن يؤدى كاملا قبل أن نجنى ثماره ، وهذا الثمن هو الدفاع عنه وذياد الطامعين فيه عن حياضه ، وإذا كان هذا الموقع فريداً عظيم القيمة على النحو الذى وصفناه فلا بد أن يكون الثمن غالياً باهظ التكاليف أيضاً . لأن المطامع فيه متجددة ، والراغبين فيه كثيرون والمورد العذب كثير الزحام كما يقولون ، فلا بد لأصحاب هذا الموقع من أن يظلوا على الأهبة أبداً ، ولا معدى لهم عن أن يبذلوا دماءهم دواماً فى سبيل الحفاظ على هذا الموقع وخيراته ، بل ليس لهم أن يشكوا من طمع الناس فى أرضهم وكلبهم عليها ، لأن هذا الطمع فى ذاته أمر منطقى بالنسبة لطبيعة الحياة على الأرض وهى طبيعة صراع متصل على موارد الرزق والخير . ونحن أنفسنا غزونا هذا الموقع غزوا واستولينا عليه

استيلاء وجعلناه بلدنا بأسنة الحراب . .

ولقد كان سكان الدلتا قبل توحيد القطرين من أهل جزائر البحر الأبيض ،وكانوا شعباً قائماً بذاته مستقلا عن مصر العليا ، وكانت صلات هذا الشعب بأهل جزائر البحر موصولة ، فلما تجرد أمراء مصر العليا للوصول بمصر إلى حدودها الطبيعية وهى ساحل البحر الأبيض ، كان عليهم أن يحاربوا أهل الدلتا ويرغموهم على الاتحاد معهم ،واستمرت الحرب بين الجانبين زماناً طويلا ، وانتهت بتوحيد القطرين وضم التاجين وميلاد مصر الباقية إلى نهاية الزمان بإذن الله .

وقد كنا ونحن صبيان نقرأ ما يقسم لنا من تاريخ بلدنا فى القديم ، ونمر سراعاً بعبارة تقليدية فى تاريخ كل فرعون تقول : « وقاد حملة إلى سوريا وهزم البدو الليبيين وغزا النوبة » وكنا نحسبها مجرد عبارة تقليدية يضعها المؤلفون فى نهاية أعمال كل ملك من ملوك مصر القديمة لاستكمال شكليات لابد منها ، فلما تقدمنا مع الدرس وزاد إدراكنا للتاريخ أدركنا أن هذه العبارة إنما هى تاريخ مصر كله ، لأن كلا من الفراعنة كان عليه أن يؤدى ضريبة الموقع الجغرافى ويحفظ مصر للمصريين بهذه الحملات شرقاً وغرباً وجنوباً ، لأن هذه الغزوات لو توقفت حيناً لوقعت مصر بين أيدى الأعداء ، فأوقفوا تاريخها ، وكتبوا على ثراها تاريخهم ، وهو ما حدث مراراً وخلال فترات طويلة من تاريخنا الطويل ، وأضاع

علينا ثمرات ذلك الموقع الجغرافى خلال فترات طويلة من تاريخنا فى الأعصر الماضية .

ولا يتصور فداحة الثمن الذى اشترت به مصر هذا الموقع إلا من درس تاريخ مصر القديم دراسة تفصيل وتعمق ، لأن هذا التاريخ الذى يبهر العين برواء الحضارة ولألاء الصناعة وبدائع الفن وروعة المنشآت ، لم يقم إلا بدماء الذين ذادوا العدى عن الوادى وحفظوه لأهله وأتاحوا للصانع أن يصنع وللمفتن أن يسترسل فى فنه وللمنشئ أن يبدع ما شاء .

وأنت لا تخطو مع التاريخ المصرى القديم خطوة إلا لمحت ضرام المعارك على الحدود وأحسست أنها ضرورة ملازمة لا غنى عنها لهذا التاريخ. خذ مثلا هذه السطور من حكم الملك ببى الأول من ملوك الأسرة الخامسة ؛ قال المؤرخ هنرى بريستد : « وبلغت سياسة ببى الخارجية شأواً عظيما ، ودرجة كبيرة غير مسبوقة النظير ، فقد أخضع بلاد النوبة تماماً ، وجند من أهلها فرقاً للجيش المصرى استعملها فى غزواته الجنوبية والشمالية ، واعتاد كلما أغار البدو على شرقى الدلتا أو مناجم سيناء أن يرسل إلى « أونا » (حاكم الوجه القبلى) أمراً بحشد جنود نوبية مع جنود مصرية لكبح جماح هؤلاء العصاة . وقد أصدر أمره فيما بعد بتعيين « أونا » قائداً عاماً للقوات المصرية فى أثناء الحرب مع البدو ، مرقياً إياه بذلك على زملائه

من رؤساء الجيش . والتحم أونا بالبدو وسحقهم ، وشتت شملهم ثم عاد إلى وطنه . وبعد ذلك عهد إليه مليكه بأربع غارات أخرى ضد البدو أيضاً عقاباً لهم . ولما أغار البدو على إقليم شرقى الدلتا أرسل بيبى عمارة بحرية تحت قيادة « أونا » المذكور إلى فلسطين ، فسارت محاذية سواحل فلسطين الجنوبية ، وأنزلت جندها هناك ، وفتكت بالثائرين فتكاً ذريعاً ثم طردتهم إلى جبال فلسطين الشمالية . ويعتبر هذا المكان أقصى ما وصل إليه النفوذ المصرى فى عهد المملكة القديمة . . »

وقد أوردت هذه الفقرة على طولها لأنها تصور حلقة كاملة من حلقات ذلك الكفاح العنيف الذى قامت به مصر للاحتفاظ بهذا الموقع ودفع الطامعين عنه وتمهيد السبيل لأهله بذلك للانتفاع بخيراته .

وذلك هو الطبيعى بالنسبة لموقع كهذا يجتذب الناس من أقاصى الأرض ، ويفيء على أصحابه من الميزات ما لا يكاد يضارعه فيه موقع آخر .

ولم يظهر هذا الموقع بقيمته كلها من فجر التاريخ ، بل ظهرت هذه القيمة مع عمران الأرض وتفرع الشعوب وظهور الشرق والغرب ، إذ من الطبيعى ألا تكون لهذا الموقع تلك القيمة قبل ظهور دول اليونان والرومان من ناحية واتصال بلاد جنوبى آسيا وشرقها ببقية العالم من ناحية أخرى ، ونشاط التبادل التجارى بين الجانبين . فنى عهود الدولتين

القديمة والوسطى من تاريخ مصر القديم لم يكن هذا الموقع على شيء مما نراه اليوم من الأهمية ، لأن البحر الأبيض كمهد من مهاد التاريخ لم يكن قد ولد بعد ، كان راكداً لا تعمر حوضه إلا جماعات من البدائيين فى كل ناحية ، وشيئاً فشيئاً ، أخذت شواطئه تعمر ، وأخذ نشاط أهله يتزايد، وظهرت العلاقات بينهم، وظهرت البحريات والموانى والتجارات المتصلة المنظمة ، وهنالك بدأت أهمية الموقع تظهر . ثم اتصل أهل الهند بأهل أفريقية ، ونشط التبادل بين الجانبين ، فظهرت أهمية الموقع كاملة وظلت لهذا الموقع أهميته طالما قامت دولة الرومان . فلما انقضى أمرها ، واستولت على أراضيها قبائل المتبربرين هبط النشاط البحرى فى البحر الأبيض حيناً ريثما استجمع العرب أمرهم واستقرت ممالكهم على شواطئ ذلك البحر ، وتجمعت لها أسباب القيام بأ..ور البحار من موانىء ودور صناعة وأساطيل وملاحين وما إلى ذلك، فعاد النشاط إلى حوض البحر الأبيض من جديد ، ومع عودة النشاط عاد لموقع مصر أهميته ، فإذا بها مركز البحرية الشرقية الإسلامية : فيها كانت تصنع السفن ومنها كانت تصدر العمائر وبرجالها كانت تحشد الأساطيل. واستمر ذلك طوال العصر الأموى ، لأن الدولة الأموية كانت دولة بحرية متوسطية ، كان الشام مهدها ومصر قاعدتها الكبرى وحوض البحر الأبيض الشرقى مجالها الحيوى . ثم تغير الأمر بعد أن انتقل مركز الدولة الإسلامية من دمشق إلى بغداد ،

لأن الدولة الإسلامية لبست ثوباً جديداً بعد أن استقرت بأرض الرافدين فتحولت من دولة بحرية متوسطية إلى دولة قارية أسيوية ، فبينما كانت عيون خلفاء بنى أمية متجهة نحو القسطنطينية وجزائر البحر والمغرب والأندلس ، وبينما كانت عناية رجالها بالأساطيل والبحار متصلة متزايدة ، إذا بعيونها تتجه إلى الشرق من بغداد ، وإذا هى تتخلى شيئاً فشيئاً عما كسبته من بيئة البحر الأبيض العامرة بأنفاس اليونان وتقاليدهم فى الحضارة والفن وروح الحكم ، وإذا هى تصبح كسروية فارسية ، وترتد فى الروح والنظام وأسلوب الحياة إلى عالم الدولات الأسيوية القديمة التى لا تعنى بالبحر والمرافئ والملاحين .

ولم يزل هذا الاتجاه الأسيوى يغلب على الدولة الإسلامية ، ومنها مصر حتى صرفها عن البحر صرفاً تاماً ، فأغلقت نوافذ مصر الشمالية واضمحلت الإسكندرية . ولم يزل الأمر على ذلك حتى بلغ ذروته عندما وقعت مصر فى أيدى الأتراك العثمانيين ، فهبط عليها ذلك الستار الكثيف الذى حال بين ما وقع بين أيديهم وبين بقية العالم ، فلم تعد لهذا الموقع أى أهمية وظل ذلك حاله حتى نهاية القرن الثامن عشر .

ومن مطالع القرن التاسع عشر بدأ هذا الموقع الجغرافى يسترد أهميته من جديد ، فقد اكتمل عمران الشرق والغرب ، ولم يعد التبادل التجارى بينهما هواية يتجشمها المغامرون الذين يطمعون فى الكسب الكثير عن طريق استجلاب

كماليات كالتوابل والعطور ، بل أصبح ضرورة مفروضة لا يقوم عمران الدنيا بدونها ، فقد كثر الناس فى الشرق والغرب واحتاج كل من الجانبين إلى ما عند الآخر ، وبدأ الكفاح الواسع المدى بين القوى العالمية ، وظهرت معه أهمية المواقع الاستراتيجية الرئيسية كقناة السويس وجبل طارق ومضيق ملقا وقناة بناما وما إلى ذلك . وهنا أصبح موقع مصر ميدان كفاح عالمى خطر ، وزادت الأعباء الملقاة على أهلها ، لأنه أصبح مفتاحاً للسيادة على الأرض ، من ملكه فقد ملك الكثير ، ومن خسره فقد خسر الكثير أيضاً .

وإنما مررت بتاريخ هذا الموقع ذلك المرور السريع لكى أبين للقارئ أهميته من ناحية ، ولكى أخلص إلى ثلاث حقائق أعتقد أنها من أهم ما يعيننا على تحديد مكانة هذا البلد ورسالته العليا فى الوجود من ناحية أخرى .

الأولى أن تاريخ مصر هو تاريخ البحر الأبيض على وجه التقريب : إذا استقرت أمور مصر ورخيت أحوالها عمر هذا البحر بالنشاط وانتعشت موانيه ورخيت أحوال بلاده . وأنت تستطيع لهذا أن توجز تاريخ البحر الأبيض فى تاريخ الاسكندرية . أما قبل إنشائها فلم يكن لهذا البحر — ككلٍ مترابط — تاريخ ، إنما كان هناك نشاط محدود فى هذا الجانب أو ذاك. ومنذ ظهر هذا البلد ظهر البحر الأبيض بوحدته وقيمته الكاملة . ولقد

ظهرت قبل الاسكندرية فى حوض هذا البحر موان ذات أهمية كموانى الشام وشبه جزيرة البلقان وقرطاجنة ومرسيليا و برشلونة وغيرها ، ولكن واحدة منها لم تخرج بالحوض الذى تقع فيه عن المحلية المحدودة، فأما الاسكندرية فقد ربطت شرق البحر بغربه وشماله بجنوبه على نحو مكن للبشر من القبض على نواصيه ، ويسر لهم ركوب أمواجه والانتفاع به على أوسع نطاق ، وأعطاه القيمة العظمى التى يحتلها فى حياة البشر .

وخلاصة هذا الكلام أن البحر الأبيض فى حقيقته اسكندرى ، أعطى الإسكندرية مالم يعطه غيرها ،وأفاد منها ما لم يفده من غيرها أيضاً، وأيسر دليل على ذلك أن أزهى عصوره هى أزهى عصورها ، فهذا البحر لم يأخذ مكانه الصحيح خلال التاريخ الطويل إلا على أيام البطالمة وخلال أيامنا هذه . فأما أيام البطالمة فتتحدث عنها منارة الاسكندرية وهى أبلغ ما يدل على النشاط البحرى ، ولم ينشئ البشر مثلها — فى البحر الأبيض أو سواه — إلا فى هذا العصر الحديث . وأما الإسكندرية وبحرها فى أيامنا هذه ففى غير حاجة إلى بيان .

ولقد قامت على شطئان هذا البحر مرافئ أخرى ، ربما زاد بعضها على الإسكندرية فى الضخامة ومظاهر العمران فى بعض العصور ، ولكنها رغم هذا التفوق لا تقص من تاريخ هذا البحر ما تقص الإسكندرية ولا تصور من نشاطه ما تصور ، وتستطيع أن تطوف بموانى هذا البحر

كيف شئت ، فلن تجد ما يجمع شعوبه كلها على بساط واحد مثل هذا البلد المجيد .

ولهذه الصلة بين الإسكندرية وحوض البحر الأبيض صدى بعيد فى تاريخ مصر ، ولها نصيبها من رسالة مصر كلها .

والحقيقة الثانية أن تاريخ مصر متأثر بالبحر الأبيض على صورة دائمة ، وقد لا نحس نحن بهذا التأثير فى بعض الأحيان ، وقد يخيل إلينا فى أحيان أخرى أن هذا التأثير قد ضعف أو تلاشى . والواقع أنه قائم فعال أبداً حتى فى الأعصر التى يسكن فيها نشاط مصر البحرى ويسود السكون موانيها ، كالعصر التركى مثلا ، فقد قامت فى أثنائه جاليات التجار الأوروبيين فى الاسكندرية والقاهرة . ولم تنقطع حركة السفن بين مصر والشام واليونان . وأبسط الدلائل على ذلك تلك العربة المعروفة بالكارو ، التى تعتبر اليوم من أهم وسائل المواصلات فى المدن المصرية ، وكانت وسيلة النقل الوحيدة إلى حين قريب ، فهى إيطالية ، وفدت علينا من صقلية خلال القرن السابع عشر على الأغلب ، وأثرها فى الحياة المصرية العامة أظهر من أن نقف عنده فى هذا السياق .

والحقيقة الثالثة هى أن حياة مصر لا تستقيم إلا إذا كانت على صلة بالبحر الأبيض ، فإن العنصر البحرى داخل فى كيانها ، مشترك فى تكوينها بنصيب كبير . وسترى فى كلامنا على علاقة مصر بهذا البحر

أننا وإن غلب علينا الأصل الإفريقى إلا أن نصفنا الذى يعيش فى الوجه البحرى منه لم يفقد أثر البحر أبداً ، بل إن الآثار البحرية تغلغلت فى مصر العليا حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من الحضارة المصرية فى شتى عصورها. وأنت أنى وقفت فى مصر لا تعدم شيئاً يدلك على صلة هذا البلد بالبحر ، ولو كان هذا الشيء نسمة بحرية تعبر لك حاملة إليك ريح البحر اللطيف ونداءه الغلاب . وسنروى فيما يلى موجزاً لقصة الصراع الطويل بين البحر والقارة الإفريقية على مصير هذا البلد .

* * *

ولدت مصر إفريقية ، فقد ظهرت الأسرة المصرية التى أقامت الملك المصرى فى الصعيد . وكانت هناك فى أول الأمر بطبيعة الحال أسر قوية كثيرة فى شتى النواحى ، وقامت الحروب بينها واختفى الضعيف منها حتى انتهت إلى أربع هى التى يرمز إليها بالنحلة والبوصة والثعبان والنسر . والاثنتان الأوليان فى الوجه البحرى والأخريان فى مصر العليا ، ثم غلب قبيل النحلة على الوجه البحرى كله وقبيل النسر على الوجه القبلى . ثم قامت الحروب بين الوجهين ودامت دهراً طويلا انتهى بانتصار ملك مصر العليا . وتغلبت مصر الإفريقية على مصر البحرية ، ودام ذلك معظم عهد الدولة القديمة .

وفى أواخر ذلك العهد بدأت آثار البحر الأبيض تظهر فى الحضارة المصرية . كان الاتحاد بين الوجهين قد تم ، واستقرت الأمور فى البلاد وتحول سكان مصر من البحر إلى الشلال إلى شعب واحد متجانس ، وأخذ تأثير الوجه البحرى يظهر ويمتزج بتلك العناصر الإفريقية التى أقامت حضارة الأسرات الأولى ، وشيئاً فشيئاً نجد ملوك مصر يتجهون نحو الشمال ويشعرون بجاذبيته . ويسهم رجال الوجه البحرى فى بناء الدولة ويسيرون أساطيلهم فى البحر باسمها تغزو مواقع الساحل وتؤيد القوات المصرية البرية الزاحفة فى فلسطين لتأمين حدود مصر من هذه الناحية . وأخذت تظهر فى الفن المصرى عناصر تؤكد أثر البحر المنعش الرقيق ، وبدت صناعات الأسرتين الخامسة والسادسة بهذا الطابع الفياض بالقوة والرقة والأصالة والجمال ، لأنه مزاج من الحضارة الإفريقية وحضارة البحر الأبيض ، وستقوم عليهما حضارة مصر وتاريخها من ذلك التاريخ إلى يومنا هذا .

ثم كانت الأسرة الثانية عشرة ، وهى تحتل فى تاريخ مصر مكاناً خاصاً بسبب ما ساد أيامها من رخاء وما ظهر على الفن المصرى فى ظلالها من الأصالة والدقة والإلهام الصادق ، ومرد ذلك إلى أن التوازن بين المصرَين ـــ الإفريقية والبحرية ـــ كان كاملا فى ذلك الحين ، وإن الناظر إلى ما خلفه ملوك هذه الأسرة الفيومية ليلاحظ دون مشقة أنه يحمل

نفس الروح الذى ستحمله فيما بعد فنون أمم البحر الأبيض كلها .

ثم يجتاح الهيكسوس مصر ، ويتلكأ سير الحضارة فيها إلى حين ، حتى إذا أذن الله بخروجهم كان القائمون بعبء ذلك أمراء من أقصى جنوبى مصر ، كانوا أفارقة خلصاً جددوا شباب الدولة المصرية بما ركبه الله فى طبعهم من صلابة الأفارقة الخلص التى لا نزال نلمحها إلى اليوم فى أبناء الصعيد ، ولكن مطالب الدفاع وظروف الدولة المصرية إذ ذاك اتجهت بهم إلى الشمال ، وجعلت عيونهم مثبتة على الحدود الشمالية الشرقية والحدود الغربية ، ولم يكن لهم بد من أن يتأثروا بدورهم بالبحر . وكان العالم قد تغير من حولهم ، وبدا بوضوح أن جبهات مصر الحقيقية ليست فى الغرب حيث كانت جماعات البدو الليبية تجوس الفيافى متلمسة غرة أهل الوادى أو فى الجنوب حيث كانت النوبة ، وإنما فى الشمال ، حيث البحر وشعوبه الوليدة فى الجزر وأشباه الجزر المواجهة لمصر ، التى كانت تتحفز لانتزاع القيادة منها ، وفى الشمال الشرقى حيث انتظمت بعض شعوب آسيا فى دول صغيرة تنازع مصر السيادة والسلطان . ومست الحاجة إلى الأساطيل ومن يتولون أمرها ، وأصبح الفراعين يقضون معظم أيامهم فى الشمال . وازدادت عنايتهم بالوجه البحرى وغلب على الدولة كلها طابعه ، أى أن مصر البحرية غلبت على مصر الإفريقية ، وظهر

ذلك بشكل واضح فى الناحيتين المادية والمعنوية للحضارة المصرية . فأما عن الناحية الأولى ، فذلك ظاهر فى طرز منشآت الدولة الحديثة ابتداء من أيام امنحتب الثالث . وأما من الناحية المعنوية ، فيتجلى ذلك فى هذا المذهب الدينى الذى نادى به أخناتون ، مذهب التوحيد الذى يتمثل فى عبادة قرص الشمس آتون ، وهو نفحة امتدت إلى مصر من مهبط الأديان ، أى الركن الجنوبى الشرقى من حوض البحر الأبيض ، أرض فلسطين .

ومعنى هذا كله أننا نلاحظ أن مصر البحرية تجتذب مصر اجتذاباً شديداً من أيام الأسرة الثانية عشرة وما تلاها ، حتى إذا وصلنا إلى الأسرة الثانية والعشرين وجدنا مركز مصر قد انتقل إلى الوجه البحرى ، وأصبحت العاصمة فى صا الحجر ، أى أن مصر البحرية غلبت آخر الأمر ، وأصبح البلد كله يدار من الشمال . نعم إن ذلك كان إيذاناً بنهاية مجد مصر القديم ، ولكن هذا المجد كان لا بد أن ينتهى يوماً ما ، فقد دام لمصر أكثر من عشرين قرناً متوالية ، وهو أطول زمان عرفه التاريخ لمجد أمة من الأمم .

ومن ذلك الحين انتهت سيادة مصر الإفريقية تماماً ولم تعد إلى الظهور بعد ذلك ، وارتبطت مصر ومصائرها بالبحر الأبيض وأهله على نحو

متصل إلى اليوم ، ودخل في الميدان عنصر جديد هو العنصر الأسيوى ، الذى بدأ بالغزوة الفارسية المخربة سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، وهى غزوة تعتبر نقطة تحول فى التاريخ المصرى كله ، لأنها فتحت باب الشرق على مصراعيه . وأصبح تاريخ مصر بعد ذلك نزاعاً بين موجات الغزو الأسيوية ومصر البحرية ، أى مصر البحر الأبيض المتوسط . وهو كفاح طويل دام قروناً ، غلبت آسيا على مصر خلاله ما يزيد على ألف ومائتى عام لم تتخللها إلا فترة انقطاع واحدة : عصر البطالمة الذى أعاد إلى مصر البحرية مقامها ، وجعل هذا البحر مركز البحر الأبيض كله . أما الباقى فموجات أسيوية يلى بعضها بعضاً ، آخرها موجة الأتراك العثمانيين التى لم تنته إلا عندما غزا الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨ . وانفتح باب البحر الأبيض على مصراعيه، واتصلت مصر به اتصالا مباشراً وثيقاً، واستعادت مكانها بين دول. وبين دول العالم بالتالى .

فإذا نحن أردنا أن نجمع ذلك كله فى عبارة واحدة تعطينا فكرة واضحة عن الاتجاهات الرئيسية لتاريخ مصر العام لقلنا إن مصر تنازعت تاريخها ثلاث قوى : إفريقية وآسيا والبحر الأبيض ، وأن القوة الأولى تلاشت فى منتصف الدولة الحديثة من تاريخ مصر القديم ، وأما الثانية فقد فرضت على مصر فرضاً وتمكنت فى فترات طويلة من تحويل اتجاه تاريخه العام وجعله أسيوياً خلال قرون كثيرة ، أما القوة الثالثة وهى البحر

الأبيض فهى العنصر الأساسى فى تاريخ هذا البلد . ومصر التى وُلدت إفريقيةً لم تلبث أن صارت بحرية مثلها فى ذلك كمثل اليونان والرومان ، فقد أقبلوا من قلب القارة الأوربية ، ثم اجتذبهم البحر وأخضعهم لسلطانه وحمّلهم تراث حضارته ، التى هى الحضارة الراهنة كما سنرى بعد قليل .

* * *

وهذه القوى الثلاث التى تنازعت تاريخ مصر هى الابعاد الثلاثة لهذا التاريخ ، وهى فى مجموعها تعطى هذا التاريخ هيأته وحجمه وعمقه أيضاً ، ولا بد لمصر إذا أرادت أن يستقيم ميزان حياتها من أن توازن بين هذه القوى ، فلا تغلب واحدة منها واحدة ، ولا تصرفها واحدة منها عن واحدة ، وسنرى فى سياق هذا الكلام أن إهمال مصر للناحية الشرقية قد جر عليها بلاءً شديداً ، وأن إهمالها لمكانها فى البحر الأبيض قد عرضها لأخطار شتى ، وأن انصرافها عن إفريقية فى بعض فترات تاريخها أساء إليها .

وهذه الأبعاد الثلاثة للتاريخ المصرى تحدد لنا حدود الحضارة المصرية ، فإن لكل بلد ذى مقام على وجه الأرض حدوداً حضارية لا بد أن تقوم برسالتها فيها . فحدود الولايات المتحدة السياسية مثلا معروفة

ثابتة ، ولكن حدودها الحضارية تترامى إلى ما وراء ذلك بكثير ، حتى لتشمل العالم الجديد كله ، وحدود مصر الحضارية تترامى إلى ما وراء حدودها الجغرافية فى إفريقية والشرق الأوسط والبحر الأبيض .

والأمم لا ترسم حدودها الحضارية كما ترسم حدودها الجغرافية بقوة الجند والسلاح ، ولكن هذه الحدود ترسم نفسها بنفسها ، وتتوقف على ما أودع الله فى كيان الأمة من الأصالة وقوة الاندفاع . وقد عرف التاريخ أمماً أوتيت من القوة الدافعة ما مد حدودها الحضارية إلى مدى لا يكاد يصدق ، كهذه الأمة العربية التى مدت حدودها الحضارية من الفيليبين إلى المحيط الأطلسى ، وتلك الأمة الإسبانية التى أدخلت فى نطاق حضارتها قارة بأسرها ، هى أمريكا الجنوبية وما يصاقبها .

ومصر من تلك الأمم ذات القوة الدافعة التى تحمل حضارتها إلى ما وراء حدودها بمراحل كثيرة ، وسنحاول فى الفصول التالية أن نتتبع هذه الحدود .

وهذه الحدود الحضارية هى التى تحدد للأمة رسالتها فى الوجود ، فما دامت أجيالها الماضية قد عرفت كيف تمد حدودها إلى ذلك المدى المقدور ، فإن على أجيالها اللاحقة أن تسعى للحفاظ على تلك الحدود وتجتهد فى بث النور فى أرجائها والطموح إلى المزيد . لأن التاريخ فى صميمه تاريخ حضارات وصراع مدنيات ، فحدود مدنيتنا هى حدود

تاريخنا ، وبقدر ما نحافظ عليها تُقسم لنا أيام الرخاء والسعود .

وسنحاول أن نتتبع فى الفصول التالية حدود مصر الحضارية فى تلك الاتجاهات الثلاثة التى ذكرناها ، فإذا تبيناها ظهرت لنا حدود رسالتنا فى هذا الوجود .

مصر وإفريقية

وُلدت مصر كما قلنا إفريقية ، ولا زالت تشعر بإفريقيتها وبالتزاماتها حيال تلك القارة على مدار التاريخ . ولقد اجتذبها البحر الأبيض وأدخلها فى نطاقه الحضارى ، وشغلتها آسيا واحتوتها فى نطاقها قروناً طويلة ، ولكن شعب مصر كان وما يزال يشعر بإفريقيته، حريصاً عليها فخوراً بها . ولا يزال الصعيد وأهله موضع فخار مصر ومصدر قوتها وحصنها الذى تركن إليه . وما من شىء تراه قائماً فى مصر اليوم إلا ولأهل الصعيد فيه الأثر البعيد . فهؤلاء الرجال الأشداء هم الذين حفروا قنوات مصر كلها ، وأقاموا بسواعدهم معظم ما ترى من المبانى والمنشآت ، وهم قدموا ولا زالوا يقدمون لهذا البلد نفراً من خيرة رجاله الذين قادوا أموره ووجهوا سياسته ورفعوا رأسه فى كل ميدان .

وهذا الفخر بالصعيد وأهله هو فى ذاته فخر بالعنصر الإفريقى فى تكويننا ، وهو الدليل الناطق على اتصال شعورنا بإفريقيتنا . ولقد سخر الناس من أحد الخديويين ، حينما قال إن مصر قطعة من أوربا ، لأن ذلك الزعم يحرمهم من موضع اعتزاز عميق فى نفوسهم ، هو الانتساب إلى تلك القارة المظلومة : إفريقية . .

ولم ينصف التاريخ أو الناس هذه القارة ، فقد كانت تسمى إلى حين قريب بالقارة السوداء ، نسبة إلى لون غالبية سكانها ، وكانت تسمى بالقارة المظلمة ، بسبب انتشار الجهل فى ربوعها . وحسب الأوربيون أنهم يستنقذون هذه القارة مما هى فيه بتقسيمها فيما بينهم مناطق نفوذ ودوائر استعمار ، وبدلا من أن يسعى كل فريق منهم فى النهوض بما قتطعه من بدن هذه القارة اجتهد فى تحويلها إلى مزرعة لبلاده ، أو مورد للمواد الخام ، أو منصرف للزائد من السكان ، أو نقطة ارتكاز عسكرية تنفعه فى الصراع العالمى ، وهكذا كان نزول أولئك الناس تلك القارة بلاءً عليها وعلى سكانها ، وتضافت إلى مشاكلها مشكلة جديدة ، هى مشكلة أولئك المستعمرين ، وعلينا اليوم قبل أن نستطيع شيئاً بجيراننا الإفريقيين أن نبدأ بمطاردة المستعمر وتحرير الناس منه ، ثم يبدأ بعد ذلك الإصلاح .

ولقد فرضت الظروف على مصر أن تكون صاحبة النصيب الأكبر فى جهاد النهوض بشركائها فى هذه القارة ، ولقد قامت بواجبها نحو الوطن الإفريقى على طول التاريخ كما سنرى ، قامت به من تلقاء نفسها وبفطرتها التى برأها الله عليها ، ولكنها تجد اليوم حوائل تحول بينها وبين أداء هذه الرسالة ، وهذه الحوائل هى الأغلال الثقيلة التى قيد الأوربيون بها كل شىء فى إفريقية ، فقد وضعوا الحدود وأقاموا السدود ونصبوا فى كل ناحية

حكومة عسكرية لا تأذن للداخل أن يدخل أو للخارج أن يخرج إلا بحساب تراعى فيه مصالح الدولة المستعمرة لا صوالح الأهلين المساكين . ومن ثم فإن المصرى الذى تعود أن ينتقل إلى ما شاء من بلاد إفريقية معلماً أو تاجراً لم يعد يستطيع اليوم أن يفعل ذلك ، والمصرى الذى تعود أن يرى جماعات إخوانه الإفريقيين مقبلين إلى بلاده ليتعلموا أو ليستزيدوا من الخير أو ليتاجروا ، لم يعد يراهم اليوم إلا إذا كان مجيئهم خلساً ، حتى الحاج منهم إلى بيت الله الحرام لم يعد يستطيع المرور بمصر إلا إذا أخذت عليه المواثيق والضمانات التى تلزمه بالعودة . وقد حسب أولئك المستعمرون أنهم أوقفوا بذلك كل تيار منعش أن يصل إلى قلب القارة إلا إذا كان عن طريقهم ، وبالقدر الذى يرون .

وقد كان لهذه السياسة الأوروبية ، التى يتفق عليها الأوروبيون كلهم ، أسوأ الأثر فى اتجاه القارة ، لأن الإفريقيين ، وأهل القسم الشمالى منهم بصفة خاصة ، قد انطبع مزاجهم منذ أمد بعيد على نحو معين ولم يعودوا يقبلون من ألوان العلم أو العقائد إلا ما يلائم هذا المزاج . وهذا المزاج عربى مصرى فى جملته ، فإن اللغة العربية تنتشر بين أهل إفريقية دون معلم ، بينما يجهد الأوربيون فى إنشاء المدارس والمعاهد لنشر لغاتهم فلا يصلون إلى شىء يساوى عناء الجهد الذى بذل فى سبيله ، وكذلك الإسلام ، انتشر فى إفريقية دون جهد كبير ، إذ يلقاه من وصل

إليهم من أهلها كما يتلقى الناس النسيم المنعش ، فى حين أن جماعات التبشير النصرانية كلها تبذل أقصى ما تستطيع فلا تصل إلى شىء يذكر . وهذه حقيقة يقررها الأوربيون أنفسهم .

وآخر ما اهتدوا إليه هو إيقاف ذلك التيار العربى المصرى والحيلولة دونه ودون الانتشار بكل سبيل ، فكانت هذه القيود والسدود التى يحاول الأفارقة اليوم تحطيمها فى كل مكان، وتمد لهم مصر يد المعاونة على قدر ما تستطيع .

وهذه السطور تحدد جانباً من رسالة مصر فى القارة الإفريقية . وكان من الممكن أن نبسط القول فيها ، ومجال الكلام فيها فسيح ، ولكننا قلنا فيما سبق من الكلام أننا نرسم رسالة مصر فى هذه الناحية أو تلك على ضوء ما قامت به فيها فى الأعصر الماضية ، وقلنا إن حدود مصر الحضارية هى التى ترسم لها حدود رسالتها ، فلنحاول أن نرسم حدود الحضارة المصرية فى افريقية قبل أن نستطرد مع الكلام .

* * *

قلنا إن مصر تشعر شعوراً متصلاً بإفريقيتها ، وذكرنا أن أولئك المصريين الذين يعمرون مصر العليا قد أقبلوا إليها من أقصى الجنوب ، من نواحى الصومال فيما يجاور مضيق باب المندب . وبقى أن نقول إنهم — وهم فى طريقهم إلى الصعيد — لم يأتوا وحدهم طبعاً ، وإنما انضمت إليهم أثناء

السير الطويل ، الذى تم على مدى قرون كثيرة ، جماعات من كل الشعوب التى تعمر وادى النيل من منبعه إلى مصبه ، أى أن هذا الجنس الكريم الذى استقر فى مصر العليا واختلط بمن كان هناك من الناس ، إنما يمثل سكان وادى النيل كله من منبعه إلى حيث استقر بهم المطاف .

ثم إن العلاقات المتصلة بين سكان الوادى وأهل الغرب الذين يسمون فى النصوص بالليبيين ، وهى علاقات سلام حيناً وعلاقات حرب حيناً آخر ، قد أدت إلى اختلاط بشرى بين المصريين وأهل المغرب ، بل إن بعض الأسر التى حكمت مصر كانت من أولئك الليبيين ، مما يسمح لنا بأن نستنتج أن الاختلاط كان قوياً متصلاً بين الجانبين ، وأن حضارة مصر امتدت حتى شملت أولئك الأقوام ونقلتهم من البداوة الصرفة المطلقة إلى الاستقرار والسير فى مدارج العمران ، حتى بلغوا منه مبلغاً مكن لهم من إقامة الدولات.

* ومن الثابت على أى حال أن الحدود السياسية الغربية لمصر فى العصور القديمة والوسطى تصل إلى إقليم برقة ، وقد كان هذا الإقليم جزءاً من مصر إلى أواخر أيام البطالمة ، واعتبره الرومان جزءاً من مصر . وفى خلال العصور الإسلامية استمرت هذه التبعية السياسية وإن خفيت فى فترات وظهرت فى فترات ، فأما الفترات التى خفيت فيها فكالعصر الطولونى أو عصر دول المماليك ، والسبب فى ذلك أن الأخطار كانت تهدد مصر من ناحية

الشرق تهديداً متصلا ، فانصرفت عن الغرب بكيانها كله انصرافاً يكاد يكون تاماً . ولكن حكام مصر ظلوا يشعرون مع ذلك أن برقة جزء داخل فى ممالكهم ، بدليل أن صلاح الدين الأيوبى أرسل أحد إخوته ليستطلع الأحوال فى برقة وليمهدها له حتى يلجأ إليها آل صلاح الدين إذا اختلفوا اختلافاً خطراً مع نور الدين زنكى .

ولا حاجة بنا إلى الإشارة إلى ما يلاحظه كل زائر لهذا الإقليم حتى اليوم من غلبة الطابع الحضارى المصرى عليه ، ومن أن اتجاهه العام إلى الشرق ، ومن أن أهله يعتبرون مصر المركز الكبير الذى يستطيعون الاعتماد عليه فى كل حين .

أما الحدود الحضارية لمصر فتصل بصورة واضحة كل الوضوح إلى تونس ، وهى تمتد إلى ما يلى ذلك امتدادات تصل فى بعض الأحيان إلى المحيط الأطلسى . والثابت على أى حال أن تونس داخلة فى النطاق الحضارى المصرى ، وأن التونسى أو القيروانى أو البونى قريب فى لهجة الكلام والذوق العام من أهل مصر ، وأهل القاهرة ومديرية البحيرة على الخصوص .

وتاريخ الحضارة المصرية فى تونس ليس بعيداً كتاريخها فى برقة ، فهو يرجع فى الغالب إلى العصور الإسلامية . فقد فتحت تونس — وكانت تسمى إفريقية — من مصر ، ومن الفسطاط صدر الفاتحون إلى تونس

وعادوا إليها ، وفى الفسطاط درس أهل تونس ، وعلى شيوخها تتلمذوا حتى استقام العلم فى بلادهم ، فقامت مدرسة القيروان المعروفة فى تاريخ الفكر الإسلامى ، وظل شيوخ القيروان يذكرون شيوخ مصر مدى طويلا ، وظلت العلاقات موصولة بين الجانبين ، حتى نزلت بالمغرب كارثة العرب الهلاليين ، فكادت تزول منه معالم العمران ، ولم تتجدد الحياة فيه إلا على أيدى الموحدين المقبلين من الغرب ، فصغت تونس من ذلك الحين إلى ما يليها غرباً من بلاد المغرب ، ولم تعد الصلة بينها وبين مصر إلى الانتظام إلا فى العصر الحديث .

وصلات تونس بمصر فى العصر الحديث موضوع طريف يحتاج إلى دراسة ، فقد عملت الظروف كلها على تفريقهما وقطع الصلات بينهما ، ففى خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر لا نكاد نلمح علاقة سياسية بين الناحيتين ، بل كادت فرنسا تغرى «محمد على» بغزو تونس لحسابها ، ولكن الباب كان مفتوحاً بين الشعبين ، فكان التونسيون يفدون إلى مصر فى طريقهم إلى الحجاز أو كانوا يلمون بها للدرس أو للاستقرار فيها . وفى تاريخ رواق المغاربة فى الأزهر ما يدل على ذلك بأبلغ بيان ، ولا زال بين ظهرانينا أحفاد المهاجرين التونسيين الذين وفدوا إلى مصر خلال ذلك القرن الماضى . ولا بد أن الذين عادوا إلى بلادهم من أولئك

الوافدين أكثر ممن أقاموا . ومن الطريف أن عدداً كبيراً من الجالية اليهودية المصرية أصلهم من يهود تونس ، هاجروا إلينا وتمصروا .

واستمرت الصلات بين البلدين حتى نهاية العقد الثامن من ذلك القرن التاسع عشر . ومن غريب المصادفات أن تونس وقعت بين براثن الاحتلال الفرنسى قبل أن تقع مصر فريسة للإنجليز بسنة واحدة . ومن الطبيعى أن يقفل الباب بين الجانبين بسبب سياسة الإنجليز فى مصر من ناحية وسياسة الفرنسيين فى تونس من ناحية أخرى . ولقد بذل الفرنسيون أقصى ما استطاعوا من الجهد لفصل تونس عن بقية أمم الشرق الإسلامى ، ومصر أولها ، وفتحوا الباب على مصراعيه لمهاجرة الإيطاليين حتى كادت جاليتهم أن تكون خطراً على الكيان البشرى لتونس ، ولكن ذلك كله لم يغن شيئاً عن الفرنسيين ، واستمرت تونس شرقية الروح مصرية الطابع . لأن مصر هى أول ما يلقى التونسى المتوجه إلى المشرق ، وهى كذلك أضخم بلاد الشرق الإسلامى وأوفرها حضارة ، ومن ثم فإن التونسى يقنع بما يجده فيها ، فإذا كان طالب علم درس فيها ، وإذا كان حاجاً أراح فيها فى الذهاب واحتقب منها ما استطاع فى الإياب ، أما إذا كان مهاجراً فهى حسبه ، وفيها عما عداها غناء . ومن ثم فلا غرابة فى أن نقول إن الحضارة التونسية الشرقية إنما هى فى الواقع حضارة مصرية ، ولا غرابة أن نجد اللهجة التونسية أقرب اللهجات إلى اللهجة المصرية ؛ وما إن يقر

التونسى الوافد على مصر فيها أسبوعاً حتى يجرى لسانه بلهجة أهلها ، ويندمج فيهم فلا تكاد تميزه من بينهم بشىء .

ولا يظهر هذا الأثر المصرى بصورة واضحة فى الجزائر ، وذلك نتيجة لظروف الجزائر التاريخية . فهذا البلد الذى يعد من أجل بلاد الإسلام فى إفريقية لم ينعم بالرخاء والاستقرار إلا فى فترات صغيرة من تاريخه ، لأنه كان فى غالب الأمر نهباً موزعاً بين جارتيه تونس ومراكش ، وقد كان يعرف فى العصور الإسلامية باسم المغرب الأوسط ، وكانت حدوده من الشرق والغرب غير ثابتة ، فآناً نجد تونس تمتد حتى وهران ، وآناً آخر نجد مراكش تمتد حتى تلمسان ، وقد تبعت الجزائر تونس حيناً ومراكش حيناً ، ولم يظهر لها كيان واضح إلا عند ما احتلها الاتراك خلال القرن السابع عشر الميلادى ، وحولوها إلى إيالة أو ولاية عثمانية . ولم تكسب الجزائر من الأتراك بعد ذلك شيئاً ، لأن المعروف أن الترك قوم يأخذون ولا يعطون ، وهم على طول تاريخهم أخذوا من كل أمة عرفتهم شيئاً ، ولم يعطوا أحداً شيئاً — وليس معنى ذلك أنهم لم يؤدوا للإسلام خدمة ما ، إذ الواقع أنهم أدوا إليه أجل الخدمات — فلم تأخذ الجزائر عن الترك شيئاً ، ثم استقلت بنفسها وقامت فيها حكومة الدايات التى ظلت تصرف الأمور حتى سطا الفرنسيون على البلاد عام ١٨٣٠ .

ولكن أثر مصر الحضارى هناك ظاهر رغم ذلك . ولقد انقضى على

الجزائر إلى الآن قرن وربع قرن تحت الاحتلال الفرنسي وانقطعت أخبارها الصحيحة عنا فلم نعد نسمع عن هذا البلد العزيز إلا ما يصلنا من خلال كتابات الفرنسيين ، وليس من المعقول أن تشهد فرنسا بأثر مصر فى بلد تزعم أنه لم يعرف العمران إلا على يديها . بل هى أرادت ، فى نزوة من نزوات الاستعمار البشعة أن تمحو عروبة هذا البلد جملة ، وهو أمر يعجب له الإنسان من قوم المفروض أنهم أذكياء ، ولكنك تلقى الجزائرى فى فرنسا فتجده يعلم عن أمور مصر الكثير ، وتجد عنده التطلع إلى أخبار هذا البلد مما يشعرك بأن قلبه معلق بوادى النيل ، وتحس إذ يتصل الحديث بينك وبينه أن هناك رابطاً يجمعك إليه ، وهو رابط الحضارة المصرية الإسلامية .

وإذا استطردت إلى ما يلى ذلك غرباً ، أى إلى مراكش مركز العمران المغربى ، وأم دوله ، أحسست بالأثر المصرى يبدو من جديد . والسبب فى ذلك أن مراكش قطر منظم قوى ومركز للممالك والسلطات من أقدم العصور الإسلامية ، وهو الذى صار إليه تراث الأندلس كله بعد ضياع الأندلس . وإذا كانت مصر قطب حضارة الشمال الإفريقى من ناحية الشرق ، فإن مراكش قطبه الغربى ومنتهاه ، والتبادل بشتى صوره السياسية والحضارية يكون على أقواه وأدومه بين الجماعات القوية المنظمة . ومن ثم فلا غرابة أن نجد الاتصال الحضارى بين مصر ومراكش ظاهراً متصلا

تستطيع أن تؤرخ له . ويكفى أن نذكر فى هذا المقام ركب الحجاج المعروف بالركب المغربى الذى كان يخرج من فاس ومراكش للحج ويلم بمصر شهوراً طوالاً فى الغدو والرواح ، فقد كانت القافلة تصل فى بعض الأحيان إلى الخمسين ألف ، وتصور أنت ما يمكن أن يكون من الأثر لخمسين ألف إنسان ينتقلون من مراكش إلى مصر فالحجاز ، ومن الحجاز إلى مصر فمراكش كل عام .

ولم يقسم لنا لسوء الحظ أن نزور مراكش الكبرى ، بسبب ما يسدله الفرنسيون عليها من ستار هو أقسى من الستار الحديدى المزعوم ، ولكننا نزلنا مراكش الصغرى ، وهى المنطقة الخليفية ، وما يتصل بها من منطقة طنجة التى أقاموا فيها حكومة دولية ، وإنه لمما يدهش له المصرى ويعطيه أصدق فكرة عن مكان بلاده فى ذلك العالم البعيد أن ينزل تطوان فيسمع اللهجة المصرية جارية على الألسن ، كأنه لم يغادر بلده ، ويلقى إخوانه الذين درسوا فى مصر فى أيامنا هذه وعادوا يحملون رسالة الوحدة العربية الفكرية المباركة ، ويجد أخبار مصر على كل لسان وأغنيات مصر تتردد فى كل ناحية ، ويحس أن هذه الألف ميل التى تفصل بلده عن هذا البلد المغربى الجميل ليست شيئاً فى حساب الحضارات .

فإذا انتقلت إلى طنجة ، عجبت لما تلمح فيها من مظاهر الاتصال الروحى بمصر . وبحسبى أن أقص هنا قصة يغنى مغزاها عن كلام كثير .

فقد ألم الصحفى المصرى المعروف المرحوم محمود عزمى فى وفد صحفى معروف بهذا البلد ، ووقف ذات مرة بساحل البحر يستجم وحده ، فإذا بصوت يهيب به : « أين القبعة يا دكتور ؟ » فوجم الرجل ، إذ أن قائل هذه العبارة لا بد أن يكون قد تابعه فى حياته كلها ؛ فإن محمود عزمى رحمه الله ، عند ما عاد من دراسته فى أوروبا تحمس للحضارة الغربية وأصر على أن يحتفظ بالقبعة فى مصر ، فكان ذلك مثار أحاديث الناس وتندرهم ، وكتبت فى ذلك الصحف ، واشتهر أمر الرجل بذلك . وقد خلع محمود عزمى القبعة بعد ذلك وتطربش ، ومرت على ذلك سنون ، حتى نسى الناس فى مصر قبعته وحكايتها ، ولهذا كانت عبارة هذا الطنجى مثار أعمق عاطفة إنسانية فى قلب ذلك المصرى الكريم ، الذى أطربه أن يجد على ساحل الأطلسى من يعرف عنه ذلك كله ، فاعتنقه اعتناق الشقيق ! وقد قص علىّ هذه القصة صاحبها الطنجى ، وهو معروف لكل من يلم بطنجة من المصريين ، ولولا أنا نخاف أن يؤذيه الفرنسيون لذكرنا اسمه .

ويتصل بهذا الإشعاع الحضارى المصرى نحو الغرب إشعاع آخر يتجه غرباً بجنوب فيصل إلى نواحى السنغال . وربما دهش المصرى إذا علم أن هناك — بين السنغال وما يتصل به من ليبيريا وساحل العاج وساحل الذهب ، من ناحية ، ومجرى النيجر الأعلى من ناحية أخرى — اقليما يكاد

يكون ذراعاً حضارية طويلة لمصر هو إقليم شنقيط أو شنجيط ، وأهله هم الشناجطة المعروفون فى مصر ، فلهم فيها جالية تمصرت من زمن طويل ، والقرون الماضية تقص قصة الركب الشنجيطى الذى كان يخرج من هذه الناحية القصية ليحج إلى بيت الله الحرام ، فيلم بمصر ويطيل المقام بها ، وربما تخلف الكثيرون من أفراده أعواماً فى مصر ريثما يتزودون بزاد العلم ، ثم يعودون إلى بلادهم . ولقد ازدهر أمر شنقيط وزخرت نواحيها بالعلم والعلماء ، وكلهم تلاميذ مصر فى العلم وطراز الحضارة . والتاريخ الوحيد الذى كتب لشنقيط وعلمائها وحضارتها كتب فى مصر ، كتبه شنقيطى فاضل استقر فى بلادنا وتمصر ، واسم كتابه « الوسيط فى معرفة أدباء شنقيط » ،وأنت لا تقلب من ذلك الكتاب صفحة إلا خيل إليك أن قطعة من مصر قد انتقلت إلى حدود السنغال !

وعلى طول طريق الركب الشنجيطى قامت أمم مر بها نسيم مصر الرقيق عاماً بعد عام وقرناً فقرناً ، أمم لم تعرف غير مصر مطلعاً لنور العقيدة وموئلا لذخائر العرفان . وقد ذكر ابن خلدون هذه الشعوب على أيامه ، وأورد ما أمكنه من أخبارها كما سمعها ممن وفد على مصر للدرس من أبنائها ، وسنذكرها بترتيبها الذى ذكره فى تاريخه ، مع مخالفته للنسق الذى نسير عليه ، فنحن الآن بسبيل حصر هذه الأمم من الغرب إلى الشرق ، أما ابن خلدون فيرتبها على العكس ، من الشرق إلى الغرب ،

فيبدأ بالحبشة « ويليهم البجارة ، وهم نصارى ومسلمون ، ولهم جزيرة بسواكن فى بحر السويس ، ويليهم النوبة إخوة الزنج والحبشة ، ولهم مدينة دنقلة غرب النيل ، وأكثرهم مجاورون للديار المصرية ، ومنهم رقيق ويليهم زغاوة ، وهم مسلمون ، ومن شعوبهم تاجرة ، ويليهم الكانُم ، وهم خلق عظيم ، والإسلام غالب عليهم ، ومدينتهم حيمى ، ولهم التغلب على بلاد الصحراء إلى فزان ، وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية من أولها ، ويليهم من غربهم « كوكو » وبعضهم نُغالة والتكرور ولمى وتميم وجاى وكورى وأفكزاو ، ويتصلون بالبحر المحيط إلى ناحية الغرب » . أى أن ما يعرف اليوم بإفريقية الغربية الفرنسية AOF كان فى ذلك الحين ، أى فى القرن الرابع عشر الميلادى شديد الصلات بمصر ، وكان أهله يفدون على بلادنا للعلم والتنور . وقد بقيت فى مصر جماعات كبيرة ممن وفد منهم عليها ولا زالت نواح من مصر تحمل أسماء أولئك الأقوام ، خذ مثلا الناحية المسماة ببولاق الدكرور ، فهى منسوبة إلى أمة التكرور ، وكانت تسكن غربى كردفان ، فيما يعرف الآن فى تنظيم إفريقية الغربية الفرنسية باسم تشاد وأوبنجى‌شارى .

بل إن الصلات بين مصر وتمبوكتو ، كبرى مدائن حوض النيجر الأوسط فى العصور الوسطى ، كانت طوال هذه القرون موصولة لم يوقفها إلا التدخل الأوروبى فى العصر الحديث . وقد كان الأوروبيون يظنون

أن تمبوكتو هذه ناحية فى مجاهل لا يعلم أمرها إلا خالقها ، وتصدى نفر من الأوروبيين لكشفها ، فلم يجدوا إليها سبيلا إلا عن طريق القاهرة ، وتستطيع أن تقرأ قصص الكاشفين من أمثال مونجو بارك وفردريك هورنمان ورينيه كاييه وهاينريخ بارث لتتبين تعجبهم من وصول نور القاهرة إلى هذه النواحي القاصية الخافية وراء بحار الرمال . ولكن هؤلاء جميعاً ، بل أوروبا كلها لا تعلم شيئاً عن سر مصر ورسالتها فى القارة التى جعلها الله فيها . إنها الأم ومنبع النور ، وهذا فى ذاته حقيقة يثبتها التاريخ فى كل حين ، وتعمل مصر على أدائها واعية أو غير واعية ، كما تغذو الأم بنيها بطبع ساذج ركبه الله فى خلقتها .

ونحن إذا استرسلنا مع ابن خلدون فيما يذكره عن ارتباط هذه الأمم بمصر فى العصور الوسطى، وما كان بينها من علاقات لملكنا العجب مع أن مصر لم تكن لها إذ ذاك سياسة مرسومة فى هذا الصدد ، وهو يروى ما يقوله عن رجل من أهل التكرور يسميه « صاحبنا المعمر أبو عبد الله بن خديجة الكومى » كان يقيم فى مصر ويقوم بعمل المترجم بين أهل هذه النواحي والمصريين . ولا يتسع المقام للتفصيل ، وإنما حسبنا ما تدل عليه هذه السطور ، وهو ليس بالقليل .

ونجتزئ من ذلك كله بمثلين يسيرين نتخيرهما لأنهما يدحضان زعمين قد يلجأ إليهما بعض الناس ، أولهما أن وقوع مصر فى طريق

الحج هو الذى هيأ لها القيام بهذا الدور ، والثانى أن مصر لم تقم بهذا الدور إلا فى عصور الإسلام .

فأما المثل الذى يدحض الزعم الأول فهو انتشار المسيحية ثم الإسلام فى السودان الشمالى عن طريق مصر . فقد دخلت المسيحية بلاد النوبة تنفيذاً لسياسة الكنيسة المصرية . ولقد جاهد أحبار هذه الكنيسة جهاداً طويلا حتى نشروا المسيحية فى ممالك السودان الثلاث فى العصور الوسطى وهى — بحسب ترتيبها من الشمال إلى الجنوب — النوبة ثم مَقُرّة ثم عَلوَة ، وقد كتب الرحالة المصرى كوسماس المعروف بالبحار الهندى بين سنتى ٥٣٧ و ٥٤٧ ميلادية يقول إن الكنائس المسيحية منتشرة بين النوبيين وكذلك الأساقفة والرهبان والشهداء . هذا ، ولم يكن فى المسيحية إذ ذاك مواضع حج يرحل الناس إليها ، وإنما الحقيقة هى أن المصريين هم الذين أوغلوا فى السودان ونشروا المسيحية فيه .

وحدث مثل هذا فيما يتصل بانتشار الإسلام فى شمالى السودان ، فقد حمله المصريون أو العرب النازلون بمصر ، وهم مصريون ، دفعتهم إلى ذلك طبيعة البلد الذى استقروا فيه واتخذوه وطناً ، وإلا فلماذا لم يُدخل العرب الإسلام من جزيرتهم ، والعبور منها إلى السودان أيسر ، وكانت حركة انتقالهم من الجزيرة إلى السودان عبر البحر الأحمر مستمرة طوال العصور الوسطى ؟! لماذا لم يحمل الإسلام إلى النوبة ومقره وعلوة إلا عرب مصر

دون عرب الجزيرة أجمعين ؟ ولماذا تسود ثقافة مصر بلاد السودان ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادى – مع أن مصر ليست فى طريق الحج من السودان ، وإنما كان الناس هناك يحجون عبر البحر ؟

والمثل الثاني هو إدخال المصريين للمسيحية فى الحبشة . وأين مصر وأين الحبشة ؟ ولكن طبيعة مصر ووظيفتها فى القارة الإفريقية فرضت عليها هذا الواجب ، فقد حمل هذه الديانة إلى الحبشة حبران مصريان فى خبر لطيف أسطورى الطابع ولكنه لا يخلو من دلالة، وهذان الحبران هما اللذان أنشآ الكنيسة الميشية ، وجعلوها تبعاً للكنيسة المرقسية المصرية ، ولازال الأمر على ذلك الحال إلى الآن . وهو يدلنا على أن مصر تقوم بهذه الرسالة فى إفريقية من قبل الإسلام بزمن طويل، ولأسباب أخرى غير وقوعها على طريق الحاج ، وهذه الأسباب هى موقعها الجغرافى وطبيعة أهلها واتجاه تاريخها . ونحن لا نذكر هذا الكلام تغنياً بفضل وإنما تقريراً لحقيقة، حقيقة مسعدة لأهل هذا البلد ؛ لأن السعيد فى الدنيا من كانت حياته رسالة خير للآخرين ، وينبغى أن تكون مسعدة لجيرانها ، لأن الجار الذى لا يحمل إلا الخير إنما هو نعمة من نعم الدنيا . وليت العالم كله جيران على ذلك المنوال !

ورب من يقول إن مصر قامت بذلك لخيرها المباشر أو لنفعها المادى، والتاريخ الصريح أمامك ، لا تجد فيه دليلا واحداً يؤيد ذلك ، ولو من

بعيد . فإن مصر أعطت إفريقية هذا الذى رأيته كله ، فماذا كسبت منها ؟ لقد أنشأت مصر إمبراطورياتها دائماً فى بلاد آسيا ــ وسنفصل أمر ذلك فى حينه ــ ولكنها لم تطمع يوماً ما فى جار إفريقى ، ولم تقتض أحداً منهم شيئاً ، وأنصع الدلائل على ذلك أن الفتح المصرى للسودان على أيام محمد على كان فتح حضارة لا فتح سياسة ، وقد رافق الحملة المصرية نفر من علماء مصر أفاد منهم السودان بعد ذلك أعظم الفائدة ، أما ما وقع أثناء الحملة من بعض أعمال القسوة ، فالمسئولون عنه نفر من أتراك محمد على نفسه وأهل بيته ، وقد ظلموا أهل مصر قبل أن يظلموا أهل السودان . ولكن يكفى مصر مَن حملت إلى السودان من أهل العلم ، ويكفيها أن مهندسيها ــ وهم من أبناء الفلاحين المصريين ــ هم الذين أنشأوا الخرطوم عاصمة السودان اليوم وأكبر مدائن إفريقية فيما بين أسيوط ومدينة الكاب . ولو لم يكن للمصريين غير هذا لكان حسبهم ، وهو أنصع دليل على طبيعة رسالتهم فى السودان أولا وفى بقية القارة الإفريقية بعد ذلك : رسالة خير وعمران وإنشاء . ونحن قد أنشأنا فى السودان هذا البلد فأين ما أنشأه غيرنا ممن يزعمون أنهم أكثر حضارة منا وأنهم أهدوا السودان فوق ما أهديناه؟! إن المسألة ليست بما عندك بل بما تعطى مما عندك ! فقد نكون أقل من أولئك الخصوم مالا وثروة ، ولكننا أعطينا القليل الذى لدينا ، أعطيناه كله ، وهذا ــ آخر الأمر ــ محك القيم الإنسانية وميزان العواطف البشرية .

ويصعب الأمر لو ذهبنا نستقصى إشعاعات مصر فى إفريقية، فإن القارة ضخمة وتاريخها طويل ، وعلاقات أجزائها جميعاً بوادى النيل أوغل فى القدم وأبعد فى الاتساع من أن نستطيع إحصاءها كلها، وإنما أردنا بهذا أن نصل إلى تأييد هذه الحقيقة التى ترسم لمصر رسالتها فى إفريقية ، وهى أن مصر كانت دائماً وفى كل عصر منبع الحضارة الإفريقية ومصدرها ، فما اتصل بمصر من بلادها تحضر فى مدارج الرقى ، وما لم يتصل بها بقى مكانه . فإن أهل روديسيا مثلا يعيشون فى ظروف مناخية ومعاشية تشبه ظروف السودان الشمالى ، بل بلادهم أغنى وأوفر خيرات ، وصلتهم بالهولنديين والإنجليز ليست بأقصر مدى من صلات أهل السودان بمصر ، ومع ذلك فأين روديسيا من السودان ؟ أين بلد لا زال فى عداد المستعمرات ، يجرى فيه الناس على الفطرة ، ويستغلهم الأوروبى كيف شاء من بلد يقف الآن على قدميه ويجرى فى ميدان الحضارة أشواطاً ما كانت تخطر على البال ؟ فإذا لم يكن هذا أثر مصر فأثر ماذا يكون ؟

أتريد برهاناً لا يرقى إليه شك ؟ إذن فانظر إلى خريطة إفريقية : ستجد فيها ثلاثة أقاليم مستقلة، هى ليبيا والسودان والحبشة، وهى بالذات أقرب بلاد هذه القارة لمصر. وفيما يلى ليبيا إلى الغرب تجد بلداً نصف مستقل : هو تونس ، وفيما عدا ذلك لا تجد غير مستعمرات فيما عدا بقعة ليبيريا ، وهى ذات وضع خاص ، وجنوبى إفريقية ، وهو داخل

فى زمام التاج البريطانى . هذه حقيقة أضعها بين يديك وأتركك بعد ذلك تعللها كيف تشاء ، فإن تعليل المعنويات عسير ، ولا يملك الإنسان إلا أن يقرر ما قررناه مرة بعد مرة فى سياق هذا الكلام ، وهو أن مصر كانت مصدر النور والعمران والحرية فى هذه القارة .

وهذه العبارة تحدد رسالة مصر فى القارة فيما يقبل من الأيام .

مصر والبحر الأبيض

خطر ببالى أن هذا السؤال قد يثير فى ذهن القارئ سؤالا أساسياً فى دراستنا هذه : أنحن من الشرق أم من الغرب ؟

إن المفهوم الشائع أننا من الشرق ، بل إننا درجنا فى السنوات الأخيرة على أن نعتبر ذلك جزءاً من كياننا الذى يقرر مصائرنا ، ورسمنا جانباً كبيراً من سياستنا على ذلك الاساس ، واعتبرنا أنفسنا ممثلين للشرق ، فإذا قيل : الشرق ، صغت آذاننا وقلوبنا .

والواقع أن ذلك الوضع فى الشرق ليس «طبيعياً» بالدرجة التى نتصور ، ولم يكن هو وضعنا دائماً على مدار التاريخ .

وحضارتنا إلى ما قبل الفتح العربى لم تكن شرقية ، واتجاهنا من مطالع العصر الحديث ليس اتجاهاً شرقياً خالصاً .

بل كان العرب أنفسهم فى حيرة من وضعنا ، فجعلنا بعضهم فى المغرب ، ومن أولئك ابن سعيد المغربى ، وهو من أئمة الجغرافيين المسلمين وتبعه فى ذلك أبو الفدا . وقد فعل ابن سعيد ذلك عند ما قسم العالم إلى قسمين ليختص كلا منهما بكتاب ، فوضع مصر فى الغرب .

وعندما قسم الرومان دولتهم قسمين كبيرين على أيام دقلديانوس

أحدهما شرقى والآخر غربى. جعلوا مصر فى الشرق ، ولكن ذلك لا يعنى شيئاً ، لأن دقلديانوس اختار أن يكون إمبراطوراً على القسم الشرقى نظراً للأخطار التى كانت تهدد الدولة كلها ، وترك زميله يحكم القسم الغربى ، ووضع مصر فى قسمه ، لأنها كانت أغنى ولايات الإمبراطورية ، ولم يكن من الحكمة أن يدعها من نصيب شريكه فى الدولة . ولكن الواقع أن علاقات مصر بما يليها شرقاً كانت قليلة جداً ، وإنما كانت علاقاتها المتصلة مع أمم البحر الأبيض ، وكان مجال حياتها أيضاً حوض ذلك البحر .

وعندما انفصل قسما الإمبراطورية الرومانية أحدهما عن الآخر ، كانت مصر طبعاً من نصيب الشرق ، وأصبحت بذلك تعيش فى مجال الدولة الشرقية التى عرفت بالبيزنطية ، وهى المعروفة عند العرب بدولة الروم وأخذت علائقها بما يليها شرقاً من بلاد آسيا تتصل ، فكأنما كان ذلك تمهيداً للفتح العربى ، ولانضواء مصر تحت راية الشرق جملة وبدء ذلك التاريخ المصرى الشرقى الطويل .

ونحب الآن أن نمضى مع حضارة مصر الأصيلة ، حضارتها قبل الرومان واليونان ، لنرى أين تضعها هذه الحضارة ، وإلى أى الجانبين تميل بها .

* * *

إذا أنت تأملت آثار مصر القديمة لاحظت أنها تبعد فى روحها ودلالتها عن المتعارف عليه من طبائع الشرق المعروف .

فإن مجتمع الشرق قام على أساس إبعاد المرأة عن الحياة العامة ، واعتبارها جزءاً من البيت لا جزءاً من الحياة . وقام على أساس السماح للرجل بالاستكثار من النساء كما يستكثر الناس من المتاع ، وفى مصر القديمة لم يفعل هذا إلا كبار الأغنياء ، وهم يفعلونه فى كل مكان وزمان .

ونحن لا نذكر ذلك لمجرد أنه حقيقة من حقائق شتى ستنتهى بنا إلى تحديد طابع الحضارة المصرية الذى سيعين لنا مكانها بين حضارات البشر ، بل لأنه ناحية هامة من نواحى امتياز هذه الحضارة التى جعلتها أساساً لأعرق وأخلد ما عرف من حضارات .

ذلك أن المجتمع الإنسانى لا يستقيم سليما صحيح التكوين إلا إذا قام على أسس إنسانية سليمة ، والأسس الإنسانية السليمة لا تكتمل للمجتمع إلا إذا أخذت المرأة مكانها الطبيعى فيه ، وساهمت فى جهد المجتمع كله على أساس الحرية الإنسانية والمساواة التى لا يقوم مجتمع بغيرها ، فلم تعرف الحضارات البشرية مجتمعاً سليما ثابت الأركان قام على الحجر على النساء أو امتهانهن أو إبعادهن عن ميدان العمل والكفاح ، ولم تعرف مجتمعاً سليما لا تتمتع المرأة فيه بالسيادة التى تمكنها من القيام بواجبها الطبيعى كأم وسيدة بيت أو كمكافحة فى سبيل العيش .

وقد انهارت المجتمعات الشرقية كلها بسبب ظلمها للمرأة وحرمانها إياها من مكانها وحقها الطبيعيين ، وهذه حقيقة لم يتنبه لها معظم من يدرسون تواريخ هذه الدول الشرقية من المشارقة ، ولكنها معروفة للدارسين من أهل الغرب ، لأن مجتمعهم يقوم على المرأة والرجل مجتمعين ، ومن ثم فهم يعرفون أهمية المرأة فى المجتمع الإنسانى ، ويشيرون إلى ذلك ويقررون أنه أساس تقدم مجتمعهم على غيره من المجتمعات. وهذه الحقيقة — على ما يبدو من بساطتها — تفرق بين مجتمع ومجتمع وحضارة وحضارة ، بل هى الحد الفاصل بين الحضارات التى أينعت وعاشت والحضارات التى ذبلت وماتت . والأمر هنا ليس أمر مناقشة وحجج بل أمر واقع وإحصاءات ، فأمامك حضارات التاريخ فانظر فيها كيف شئت لتتبين ذلك ، ومنطق الواقع آخر الأمر أحق من كل كلام .

والحضارة المصرية القديمة من الطراز الذى أعطى المرأة حقها واعترف بها ومنحها حقها كاملاً فى البيت وفى ميدان العمل والحياة . بل إن عينك لا تقع على رسم مصرى قديم إلا وجدت المرأة فيه إلى جانب الرجل ، ورأيتها رافعة الرأس تسير معه وتعمل معه وتحتمل من الحياة نصيبها الذى يقابل ما تتمتع به من حقوق .وأنت تجد المرأة فى مناكب الحياة المصرية كلها : تجد عدداً من الأرباب فى صور نساء ، وتجد ملكات عظيمات يضاهين الملوك عظمة وسلطاناً ، وتجد عصورهن مشرقة زاهرة ، مما يدل على

احترام رعاياهن لهن وانتظامهم فى طاعتهن ، وأنت تجد الأدب المصرى القديم يضع المرأة فى موضع التكريم والإعزاز .

وحضارة مصر مشتركة فى هذه الناحية الأساسية مع حضارتنا الراهنة، وأنا أقول «حضارتنا» ، لأنك سترى أن ما نسميه اليوم بحضارة الغرب إن هو إلا الحضارة المصرية القديمة متطورة فى اتجاه واحد مستقيم .

والحضارة المصرية القديمة قامت على الأسس الثلاثة الصحيحة التى لا تستقيم بدونها حضارة تكتب لها الحياة ، وهى العلم والفن والعمل . فأما العلم فأيسر تأمل فيما بين أيدينا من آثار هذه الحضارة يتحدث عن العلم القائم على الحساب والدرس الطويل . هذه الأهرامات والمنشآت ، كيف تقوم دون هندسة ؟ وهذه الرسوم ، كيف تتم دون آلات دقيقة ؟ وهذه الأدوات البديعة التى تتراوح بين آنية البيت والسفين الضخم ، كيف تصنع — وبهذه الكثرة — إلا عن علم بالمعادن وغير المعادن واتقان للحساب الذى لا يستغنى عنه فى حقل هذه الصناعات ؟ وهذا التحنيط وما يحيط به من الطب المصرى القديم، كيف يتم بغير تشريح وإدراك كامل لما ينبغى أن يعرف من حقائق عن بدن الإنسان ؟ بل إن شيئاً من ذلك لا يتم بغير معرفة بالكيمياء والنبات وما إلى ذلك . وهذا كله فى مجموعه « علم » دقيق « اجزاكت ساينس » لم تعرفه حضارات كثيرة ، فلم يتقدم سيرها إلا قليلا .

والنصوص المصرية القديمة تنم عن ترتيب ذهنى منطقى دقيق يدل على أن العقلية المصرية القديمة كانت علمية ولم تكن غيبية ، وهى قد بدأت بالغيب الأكبر ــ ما وراء الموت ــ فحلته حلا قبله منطقها ، ولم تجعله غيباً محجباً بل مصيراً واضحاً معروف البداية والنهاية ، وقد أعد المصرى القديم لهذه النهاية ما هى بحاجة إليه ، فقد حسب أن الميت يعود إلى الحياة بعد فترة طويلة أو قصيرة فى العالم الآخر .

فالمصرى القديم كان يعيش على هدى من علم قليل أو كثير ، وقلته أو كثرته لا تعنى شيئاً فى هذا الحساب ، لأن المهم أنه كان يؤمن بما يعلم ويعيش بمقتضاه .

وهنا أيضاً تشترك الحضارة المصرية مع الحضارة الراهنة ، تلك التى نسميها الحضارة الغربية ، التى نحسب فى بعض الأحيان أنها غريبة عنا ، وما هى إلا غرس يدنا وامتداد لهذه الحضارة الباهرة التى أقامها أجدادنا على ضفاف النيل .

ولا بد هنا من وقفة طويلة بعض الشىء تنير جوانب هذه الناحية ، وما أظن أن أحداً عنى بأن يستقصى أمرها ويأتينا بالقول الفصل فى أمرها .

ذلك أن الذين يقومون على تكوين عقولنا حرصوا منذ زمن بعيد على أن يقرروا فى أذهاننا بضع مسائل أضرت بنا أشد الإضرار ، وأعطتنا فكرة سيئة عن طبيعة حضارتنا ، وعن علاقتنا الذهنية بما حولنا شرقاً وغرباً .

حرص أولئك الناس على أن يقرروا فى الأذهان المسائل الآتية :

أولا : أن هناك حضارة شرقية وأخرى غربية، وهاتان الحضارتان تتعارضان ولا تتلاقيان .

ثانياً : أننا ، المصريين ، ننتمى إلى الحضارة الشرقية وحدها ، ولا صلة لنا على الإطلاق بتلك الحضارة الغربية .

ثالثاً : أن الحضارة الشرقية ، ويقصدون بها الحضارة العربية على وجه التحديد ، لم تأخذ شيئاً عن غيرها ، وإنما هى نبتت من تلقاء نفسها ولا فضل لحضارة أخرى عليها ، ولا يدانيها شىء من أعمال البشر .

رابعاً : أن هذه الحضارة العربية هى أصل كل حضارة أخرى ، وأن العالم لم يضف إليها شيئاً إلى الآن ، بل إنه أفسد بعض نواحيها .

خامساً : وأننا إذا كنا نريد أن نعيش فواجبنا الأول هو مطاردة كل أثر من آثار الحضارة الحديثة من بلادنا ، وتنقية « حضارتنا » العربية والعودة بها إلى جوهرها السليم الصافى الذى كانت عليه .

وهذه المسائل كلها ليست حقائق ، وإنما هى أوهام أو دعايات صدرت عن عقول لا تفهم طبيعتنا المصرية حق الفهم ، وعن قلوب لا تعرف كنه الحضارة العربية فى ذاتها ، ولا تستطيع أن تدرك الناحية الإنسانية فى الحضارات .

وسأجتهد أن أعرض لكل من هذه الدعاوى فى السطور التالية ، لأن ذلك يعيننا على تحديد جوهر حضارتنا المصرية أولا ، ثم يحدد علاقتنا بالغرب وبالحضارة الراهنة ثانياً ، وهو موضوع على أكبر جانب من الأهمية بالنسبة لمن يطلب تحديد رسالة هذا البلد على مدار الزمن الطويل .

فأما عن المسألة الأولى فأقرب الآراء إلى الصحة فى أمرها هو أن تاريخ البشر لا يعرف هذا التفريق الحاسم الفاصل بين الحضارات . . لأن الحضارة معناها كل تحسن لأحوال الإنسان على الأرض ، والحضارة البشرية تبدأ منذ اللحظة الأولى لوجود الإنسان على هذا الكوكب : تبدأ منذ اهتدى الإنسان إلى تهذيب قطعة من الحجر ليستعملها سلاحاً ، وتتصل إلى يوم عرف كيف يفجر الذرة ، وستتصل إلى يوم يبعثون .

وقد تعودنا نحن أن نقول « حضارات » بالجمع ، فهناك حضارة العصر الحجرى القديم ، وحضارة العصر الحجرى الحديث ، وحضارة عصر البرونز ، ثم حضارات العصور التاريخية ، ونحن نطلق عليها أسماء الشعوب التى استحدثتها على سبيل التقسيم والتبويب لا على سبيل الفصل والتمييز ، فهناك حضارة مصر القديمة ، وحضارة اليونان ، وحضارة الرومان وما إلى ذلك حتى حضارتنا الراهنة . والواقع أن هذه كلها حضارة واحدة وسلسلة متصلة مترابطة لا تنفصل حلقة من حلقاتها عن الأخرى ، وما من حضارة إلا أخذت عن التى قبلها أو التى عاصرتها وصبت فيما تلاها

وأثرت فيما جاورها أيضاً . . . ولا يعرف التاريخ حضارة كانت وحدها وتلاشت دون أن تصب فى التيار العام إلا مرة واحدة ، وفى هذه شك أيضاً ، وهى حضارة الأزتيك التى قامت فى المكسيك .

فحضارة مصر القديمة قامت على أساس من تجارب البشر فى عصور ما قبل التاريخ ، وهى قد أفادت على طول تاريخها من كل ما عاصرها من الحضارات : أخذت عن الليبيين والنوبيين والعبرانيين والحيثيين والميسنيين ، بل اتصلت بها تيارات مقبلة من بعيد ، كهذه العجلات الحربية التى حملها إلينا الهيكسوس ، وهم لم يخترعوها ، وإنما أتوا بها من أمم قلب آسيا ، التى تحركت من بلادها فدفعت ما يليها من الشعوب غرباً ، وتدافعت الأمم غرباً فغرباً حتى بلغت الموجة مداها فى بلادنا ، فوصلتنا العجلة الحربية التى غيرت مجرى تاريخ مصر عن هذا الطريق الطويل .

والحضارة التى نسميها عربية ونحاول أن نفردها عن غيرها ليست بعربية خالصة ولا بشرقية خالصة ، وإنما هى أخذت من كل ناحية ، وأفادت من اليونان والرومان والصقالبة وشعوب الشمال . . وهى لم تفعل ذلك عن نقص فى طبعها ، ولا هو يضيرها أن نقول إنها فعلته ، بل تلك هى طبيعة الحضارات وهذه سيرتها ، ولا يمكن أن تكون إلا كذلك .

والحضارة التى نسميها غربية ونحاول أن نقول إنها شىء قائم بذاته

ليست غربية خالصة أيضاً ، فقد أخذت عن الشرق كثيراً ، واعترفت هى بذلك الاقتباس ، لا عن فقر فى طبيعتها ، ولا عن ضعف فى بنيتها ، بل لأن هذه هى طبيعة الحضارات على ما قلناه .

وإذن فليست هناك حضارة شرقية على حدة وأخرى غربية على حدة ، بل الشرقية شرقية وغربية ، والغربية غربية وشرقية .

ولما كانت الحضارات ثمرات تجارب الإنسان فهى تحمل صورة نفسه ، وتجمع بين الخير والشر ، فلم يعرف التاريخ حضارة يستطيع أن يصفها بأنها خير خالص ، ولا حضارة يعتبرها شراً خالصاً ، وإنما الحضارات كلها مزاج من هذا وذاك ، ولا معنى والحالة هذه لأن نصم حضارة من الحضارات بأنها شريرة أو خادعة أو زائفة ، لأن ذلك غير معقول ، والمعقول أن جوانب الخير فى كل عمران إنسانى أغلب من جانب الشر ، إلا فى أعصر الانهيار والانحلال .

وأما عن المسألة الثانية ، وهى أننا نحن المصريين لا ننتمى إلا إلى الحضارة الشرقية الخالصة ، ولا صلة لنا بالحضارة الغربية الراهنة فقول خاطئ من أساسه ، وهو يتضمن انحرافاً مقصوداً بطبيعة حضارتنا عن مجراها ، وفيه توجيه غير نافع — مقصود أيضاً — لحضارتنا .

ذلك أن حضارتنا المصرية ولدت ونمت وازدهرت قبل أن تزهر واحدة من حضارات الشرق التى اتصلت بنا فيما بعد ، ولقد قامت هذه

الحضارة– على ما قلناه – على أساسين ثابتين أولهما إفريقى والثانى بحرى أو متوسطى ، نسبة إلى البحر الأبيض المتوسط . ولقد أخذ التيار البحرى من حضارتنا عن أهل جزائر البحر الأبيض كثيراً وتمثله فى كيانه وامتزج هو بعد ذلك بالتيار الإفريقى ، ومن هذين التيارين تكون تياره القوى الأصيل ، ثم أخذ الجانب البحرى يقوى ويشتد ، وما زالت مصر البحرية تشتد حتى جذبت مصر كلها وأدخلتها نطاق البحر الأبيض .

ولقد انصبت فى تيار حضارتنا على الزمن الطويل روافد أسيوية ، بعضها بحرى أقبل من الشام وأرض الحيثيين فى جنوبى آسيا الصغرى ، وبعضها قارى أقبل من جزيرة العرب وأرض الرافدين وما يليهما من بلاد القلب الأسيوى ، ولكن هذه الروافد لم تلبث أن ذابت واختفت فى غمار التيار المصرى العام الذى استبحر شيئاً فشيئاً ، حتى إذا كانت أيام الأسرة الحادية والعشرين كانت مصر قد أصبحت – كما قلنا – دولة متوسطية خالصة ، عاصمتها فى الوجه البحرى ، وصلاتها ببلاد البحر وجزائره أكثر من صلاتها بالنوبة وما يليها وبلاد الليبيين فى الغرب .

وكانت الحضارة المصرية قد بلغت إذ ذاك مداها ، واستهلك كفاح الزمن الطويل أجيال مصر القديمة بعد أن صمدت للزمان آلافاً من السنين متوالية .

وكانت أمم شرق البحر الأبيض البحرية قد اشتد عودها ، وقامت

فى بلاد اليونان وفى كريت وآسيا الصغرى أمم وليدة انتقل إليها جوهر الحضارة المصرية ورواؤها ، فأضافت إليه من عندهاوأنشأت تبنى عليه لبنةً فلبنة ما عرف فيما بعد بحضارة اليونان .

وكان ضعف مصر على أيام الأسرة السادسة والعشرين وما تلاها شيئاً عادياً عرض لها قبل ذلك مراراً ،وعرض لغيرها من أمم الأرض أجمعين. والتاريخ المصرى القديم ليس إلا ارتفاعات وانخفاضات ، شأنه فى ذلك شأن غيرها من تواريخ الأمم العريقة التى تطاول الزمن السرمدى . ولقد كانت مصر قمينة بأن تنهض من هذه الكبوة وتعود سيرتها الأولى لو لم ترزأ بنكبة الغزو الفارسى المخرب سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، وهى نكبة لم تتكرر فى تاريخنا إلا مرتين بعد ذلك ، إحداهما سنة ٣٠ قبل الميلاد، عندما غلب الرومان على مصر وبدأوا ثلاثة قرون من التاريخ الدامس ، وثانيتهما كانت سنة ١٥١٧ عند ما دخل الترك العثمانيون هذه البلاد. ولقد كسر هذا الغزو الفارسى شوكة مصر كسراً لم تفلح فى علاجه إلا بعد قرون، لأنه أتاها فى أعقاب موجات من الغزو الليبى والنوبى ، وبعد منافسات داخلية محزنة أصابها من ورائها بلاء شديد ، ولأنه كان غزواً عنيفاً قاسياً حمل إلى هذا البلد الطيب ـ مصر ـ مساءات الحكم الأسيوى القديم كلها ، فكان كجراد انتشر أرجالا على أرض مخضرة فلم يبق على شىء .

وكان من أثر هذه الغارة المخربة أن مصر لم تستطع أن تغالب الإغريق الناهضين على تلك الأيام حق المناهضة ، وشف أولئك عليها بعض الشفوف ، وبدا وكأنها خرجت من ميدان الأمم الحاملة لحضارة البشر .

بيد أن مصر لم تلبث أن نهضت من جديد ، وبأسرع مما كان يتوقع ، فلقد دخل الإسكندر مصر غازياً ، وأخرج الفرس منها ، وأعادها إلى عالم البحر الأبيض ، فلم تكد تعود وينقطع عنها ذلك البلاء الأسيوى حتى نهضت من جديد . وعلى أيام البطالمة تألقت حضارة مصر مرة أخرى بكامل لألائها ، وعاد زمام العمران الإنسانى إلى يد بلادنا ، وانتشر النور من الإسكندرية وغيرها من مراكز الحضارات المصرية .

ومعنى ذلك أن حضارتنا كانت إلى الغزو الرومانى سنة ٣٠ قبل الميلاد بحرية متوسطية .

ثم اتصلت الحضارة المصرية بعد ذلك على أيام الرومان خافتة أول الأمر بسبب ما عرف عن الرومان من شدة وعنف ، ولكنها لم تلبث أن استقامت من جديد ، وأصبح بلدنا ، فى العصور الرومانية المتأخرة ، مركز الحضارة المتوسطية. ذلك أن المسيحية التى وُلدت فى فلسطين لم تلبث أن وجدت التربة الصالحة فى وادى النيل ، وعلى بلدنا وفدت السيدة العذراء مريم مع ابنها المسيح هاربة من ظلم هيرود ، ثم أقبل بعض الحواريين إلى بلادنا فوجدوا القلوب ممهدة لتلقى تلك الرسالة السماوية ، فكثر المسيحيون فى

مصر ، وأقبل إلى هذا البلد الحوارى مرقص ، فأنشأ الكنيسة المرقصية فى الإسكندرية ، وهى التى انتقلت إليها زعامة المسيحية كلها بعد قليل ، وفى مصر كتب مرقص إنجيله المعروف ، وهو أبلغ الأناجيل أسلوباً وأوفرها حكمة، وربما كان ذلك أثراً من آثار مصر عند ذلك الحوارى الجليل الذى مات فى بلادنا ودفن فيها ، ثم سرق أهل البندقية رفاته وفروا بها إلى بلادهم حيث أنشأوا باسمه كنيستهم الكبرى «سان ماركو» ، أى القديس مرقص .

وقد نهضت كنيسة الإسكندرية خلال قرنين متواليين تنافح عن العقيدة القويمة ، وناهضت كنيستى القسطنطينية وروما زماناً طويلا ، وظهر فيها أحبار أجلاء بهروا الدنيا بعلمهم وصلابتهم فى الحق ، من أمثال كيرلس الإسكندرى وديوسقوروس .

وفى هذا العصر عادت مصر بكليتها إلى البحر الأبيض وقادت حضارته واحتلت مكانها بين بناة عمرانه وابتكرت الرهبانية الديرية ، وأطلعت رجالات يعدهم الغرب اليوم من بناة حضارته من أمثال القديس أنطونيوس وباخوميوس والأنبا بولا ، وأنجبت من المفكرين الذين يذكرهم الفكر الأوروبى بالإجلال نفراً غفيراً من أمثال أوريجانس .

وقد ظلت مصر تعيش فى عالم البحر الأبيض حتى الفتح الإسلامى وورثت القسطنطينية والكنيسة الرومانية ثمرات كفاحها الطويل ، كما

ورث اليونان جانباً عظيماً من تراث مصر القديمة. وهذان العنصران اللذان خلفتهما مصر للإغريق أولا ، ثم للعالم المسيحى الوسيط بعد ذلك يعتبران من أمكن الأسس التى قامت عليها حضارة الغرب الراهنة التى يقال لنا إنها غريبة عنا ولا صلة لنا بها ، وما هى فى الواقع إلا بناء على أساس وضعناه وإكمال لصرح ثبتنا قوائمه على طول القرون .

ثم كانت الحضارة الإسلامية وأسهمنا فيها بالنصيب الذى هيأته لنا ملكاتنا وتجاربنا فى تاريخ الحضارات ، وازدهرت هذه الحضارة فى بلاد المشرقين الأوسط والأدنى ، وامتدت على ضفاف البحر الأبيض حتى حدود فرنسا الجنوبية ، وشملت حوض هذا البحر كله وجزائره ونواحى من إيطاليا والبلقان .

وبلغت هذه الحضارة الإسلامية أوجها خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، واجتمع لها من الجديد مما صدر عن عبقريتها الخاصة ، ما هو جدير بأن ينصب فى نهر الحضارة البشرية العام ، وبدأ ذلك فعلا ابتداء من القرن الحادى عشر ، فأخذت روائع الفكر الإسلامى تترجم إلى اللاتينية والعبرية ، وتنبه الناس فى العالم أجمع إلى قيمة هذا التراث الحضارى العظيم ، فأقبلوا على عالم الإسلام يدرسون ويقبسون وينقلون ، فما انتهى القرن الثالث عشر الميلادى حتى كان خير ما فى الحضارة الإسلامية قد ترجم إلى غير العربية من اللغات ، وأصبح ملكاً مشاعاً

للبشر أجمعين . هذا بينما كان أمر المسلمين أنفسهم قد بدأ يضمحل ، وانتهى عصر الإبداع فى تاريخهم الفكرى ، ولم يعد لديهم بعد ذلك إلا تكرار لما فات أو تقليد لما أبدعه الأسلاف .

ومن الغريب فى قصص انتقال ثمرات الحضارة من شعب إلى شعب وتوارث الأمم أمجاد بعضها البعض أن الأمم بطبعها تعرف الجيد فتنقله ، وتدع الردىء أو الخاص بقوم دون قوم فلا تقبل عليه ، ومن ثم فإنك تجد ما تنقله الأمم بعضها عن بعض هو النافع ، وهو الذى يلائم البشر أجمعين ، فقد أخذت يونان مثلا عن مصر القديمة المثالة والتصوير والطب والصناعة الدقيقة ، وتركت نظم الحكم وطقوس الدين ، لأن هذه الأخيرة لم تكن تستحق أن تتوارث ، ثم إنها كانت مصرية خالصة تلائم مصر وحدها ولا تنفع من عداها . فأما المثالة والتصوير والطب والصناعة الدقيقة فهى خير ما صدر عن العبقرية المصرية ، وهى تراث إنسانى خالد تعاقبت عليه الأمم ، وهو فى ازدهار ونمو حتى يومنا هذا .

وكذلك يقال فى الحضارة الإسلامية ، فإن فيها ما هو عالمى ينفع البشر أجمعين ،وفيها ما هو خاص بالعرب والمسلمين دون غيرهم . فأما العالمى الذى ينفع البشر أجمعين فالطب والرياضيات والنبات والفلسفة والتصوف والأدب الشعبى ، وأريد بالأدب الشعبى ذلك الإنتاج الساذج البسيط الذى صدر عن جماهير مملكة الإسلام دون تكلف ، فخرج

طبيعياً إنسانياً يلائم مزاج الشعوب عامة كالقصص البسيط الذى يتمثل لنا فى ألف ليلة وما جرى مجراها ، وكالشعر الشعبي الذى يمثله الزجل والموشحة . فأما ما عدا ذلك فقد يكون عظيماً فى ذاته ، ولكنه ليس إنسانياً عاماً فى جوهره ، وهو قد أعجب العرب لأنهم عرب ، ومن أمثلة ذلك شعر الفطاحل ممن يتعجب الناس عندنا من انصراف الدنيا عن أدبهم على ما يحدثونه فى العالم العربى من دوى . كالمتنبي والبحترى وأبى تمام مثلا ، وهؤلاء وأندادهم لا يساوون فى ميزان الحضارة العالمية شاعراً كعمر الخيام الذى جمع أهل الأرض جميعاً على رباعياته أو الفردوسى الذى تغنى ببطولة البشر فى قالب من بطولة الفرس ، كما تغنى قبله هوميروس ببطولة بنى آدم فى أعمال أبطال الإلياذة .

وقد يحسب البعض أن العالم لم يقبل على المتنبي والحريرى مثلا لأنه لم يعرفهما ، إذ الواقع أنه عرفهما وبذل جهداً عظيماً فى تفهمهما ، ولكنه انصرف عنهما آخر الأمر ، لأنهما إنما يمثلان ذوقاً محلياً وعبقرية خاصة .

ولعل من يسأل : وما القول إذن فى ابن خلدون ، وهو إمام من أئمة الفكر البشرى ، ما له لم يترجم إلى اللاتينية والعبرية كغيره ، وما له لم يأخذ مكانه من الفكر العالمى كله ؟ والجواب على ذلك أن ابن خلدون ظهر بعد انقضاء عصر انتقال الفكر الإسلامى إلى الفكر العالمى ، فقد ظهر فى القرن الرابع عشر الميلادى ، فظل مجهولا من الفكر العالمى

حتى القرن التاسع عشر ، فاكتشفوه قبل أن نكشفه نحن ! وهم الذين قدروه ووضعوه مكانه بين فلاسفة التاريخ ، ونحن اليوم نتابعهم فى ذلك ونفاخرهم برجل هم كانوا أول من نبهنا إلى قدره ، وهذا من أغرب ما يروى فى مثل هذا الباب .

وهذه الحقيقة الأخيرة التى ذكرناها عن ابن خلدون تنطبق على غيره ممن يعتز بهم تراث الفكر الإسلامى اليوم ، فلو أنك ذكرت ابن سينا والفارابى وابن رشد وابن طفيل لواحد من المثقفين المسلمين فى القرن الخامس عشر الميلادى مثلا لاستعاذ بالله ، وربما تلطف فذكر كلا منهم بشىء غير الفلسفة . فابن سينا هو صاحب الأرجوزات ، وابن رشد هو صاحب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ، وابن طفيل هو صاحب « حى بن يقظان » ، فأما آراؤهم ومذاهبهم فى الفلسفة ، وهى التى تعطيهم قيمتهم الحقيقية ، فقل من كان يذكرها بين ناس هذا الزمان .

ولو أنك ذكرت أسماء ابن نفيس ومسلمة المجريطى والزرقالى وجابر ابن أفلح وابن السمح وأبى القاسم الزهراوى وابن وافد وابن العوام والغافقى وابن البيطار ومن إليهم ، وهم من أعلام الطب والرياضيات والفلك والنبات فى تاريخ العلوم عند البشر ، لو أنك ذكرت أولئك فى نفس ذلك القرن الخامس عشر لوجدتهم مجهولين فى عالمهم الإسلامى الذى أطلعهم ، وهم أشهر من نيران على أعلام خارج حدود ذلك العالم .

ومن عجب أيضاً أننا نفاخر الدنيا بهم اليوم ، كأن الدنيا تجهلهم وكأنما نحن أصحاب الفضل فى كشفهم ، وما نحن فى ذلك إلا متابعين لما قاله الناس عن أجدادنا الأعلام !

وخلاصة هذا الكلام أن الجزء العالمى العام من الحضارة الإسلامية قد انصب منذ زمن طويل فى نهر المعرفة البشرية الخالد ، وأصبح جزءاً من مائه ، وارتوت به أرض البشر وأطلعت منه ثماراً مما نراه اليوم ، فالرياضيات التى تقود الحضارة العالمية اليوم تحمل فى أطوائها آثار ثابت ابن قرة وابن السمح ومسلمة المجريطى والكرمانى والبيرونى وغيرهم كثيرين، وهى تحمل من بعيد تراث أجدادنا الأول من أهل مصر القديمة، أى أن لنا رافدين فى نهر الحضارة الراهنة : رافد مصرى ورافد إسلامى ، ولم يسهم الإنجليز أو الفرنسيون فيه بأكثر من ذلك بكثير .

فهذه الحضارة الراهنة حضارتنا أيضاً ، وهى ليست من ابتداع الغرب ، بل ثمرة تجارب البشر على الزمن الطويل ، ونحن صنعنا هذا الزمن قروناً كثيرة ، وهى ليست أوروبية أو غربية وإنما هى إنسانية ، وحقنا فيها لا يقل عن حق غيرنا ، وكل الأمر أنها أخذت الآن ثوب الغرب كما لبست ثوب مصر القديمة أيام مصر القديمة ، وكما كانت إغريقية أيام الإغريق ورومانية أيام الرومان وإسلامية أيام المسلمين .

ومعنى ذلك أن هذه الحضارة التى تسمى اليوم غربية ليست غربية إلا بثيابها ، وأما صميمها فإنسانى ، ونحن كمصريين أصحاب حق فيها كغيرنا ممن ينسبونها إلى أنفسهم ، بل إن حقنا فيها أكبر ، فقد ساهمنا فيها عن طريقين ، ولم يسهم غيرنا فيها إلا عن طريق واحد ، ونحن وضعنا الأسس وجزءاً كبيراً من البنيان ، ثم جاء غيرنا فأعلى وزاد .

وأولئك الذين يزعمون لنا أن لنا حضارة أخرى تختلف عن هذه ــ وهى التى يسمونها شرقية ــ مخطئون ، لأن مصر التى ساهمت فى بناء الحضارة الإنسانية بهذا القدر العظيم لا تفرق بين شرق وغرب : الكل أبناؤها وكل ما أبدعوه إنما هو بناءٌ على ما أسسه أهلها .

وإذا كنا نأخذ جانب الشرق اليوم ، فلأن الشرق مهيض الجناح معتدى عليه ، ثم هو جارنا المباشر تجمعنا وإياه صلات اللغة والدين ونحن حريون أن نقف إلى جانبه حتى ينال حقه وحتى يأخذ مكانه فى العالمين .

ورسالة مصر الحقيقية إذن ليست رسالة الشرق أو رسالة الغرب ، بل رسالة الإنسانية كلها ، وهى اليوم تعمل جهد طاقتها ، فتأخذ من الغرب قليلا وتعطى الشرق كثيراً ، وهى لا تعطى لهدف أو غاية بل لأن هذه هى طبيعة رسالتها فى ذلك الوجود ، بل هى فى الغالب تعطى دون أن تدرى ، كما تطلع الشجرة الثمر الشهى ، لأن الإثمار وظيفتها فى الحياة .

ولعل من يسأل : أفنأخذ الحضارة الراهنة على علاتها ، ونعمل على نشرها لأنها حضارتنا ؟

والجواب على ذلك أن لحضارات البشر جوهراً ومظهراً ، فالحضارة الإسلامية مثلا جوهرها العدالة والمساواة واتصال المخلوق بالخالق — وهو المثل الأعلى — دون وسيط ، وأما مظهرها فالملابس والمساجد والعادات والتقاليد . فأنت تستطيع أن تكون مسلماً دون أن تلبس العمامة وتستطيع أن تصلى دون مسجد ، وتستطيع أن تكون مسلماً دون أن تعرف العربية . وأنت قد تلبس العمامة الضخمة وتصلى فى مسجد يرفع سقفه ألف عمود ولا تكون مسلماً بعد ذلك . والعبرة فى هذه الناحية بالجوهر ، وما يعنينا فى الحضارة الراهنة هو جوهرها ، وهو إنسانى سليم شاركت فيه أمم الشرق كلها بنصيب . أما ما أضافه الإنجليز إليها من أساليب الاستعمار ، وما أضافه الفرنسيون من ولع بالاستمتاع بالحياة ، وأنانية وجشع شديد ، وما نفثه الألمان فيها من جنون السيادة ، وما أضافه الأمريكيون من تفنن فى أساليب جمع المال ، فهذه كلها أعراض تصور الجوانب الضعيفة من النفوس الإنجليزية والفرنسية والألمانية والأمريكية ، ومن الخطأ أن نعتبرها هى لباب هذه الحضارة ، وأن نعتبر المظهر جوهراً . وأولئك الذين يصيحون فينا : إن حضارة الغرب رقص ومخاصرة ومعاقرة بنت الحان ، إنما هم مخدوعون أو خادعون ، لأن هذه كلها

أعراض بعيدة عن الجوهر ، وإذا صدق هذا على تلك الحضارة فهو يصدق على حضارتنا أيضاً ، فقد كان فيها أيضاً رقص ومعاقرة بنت الحان . . .

هؤلاء جميعاً ينبغي أن يعلموا أن الحضارات من صنع البشر ، وأن البشر ليسوا ملائكة ، وليسوا شياطين ، وإنما ركب الله في طباعهم الخير والشر بحسبان قدّره علمه الواسع ، وهو قد أودع في الإنسان شيئاً من الشر لأن الإنسان يحتاج في كفاحه إلى نصيب من الشر يتقي به الأذى ، وسبحان من خلق هذا الكون وبرأ الإنسان ليعيش فيه بالخير والشر معاً .

وأولئك الذين يدرسون الحضارات ينبغي ألا يغفلوا عن ذلك أبداً ، وينبغي أن يعلموا أن كل ما صدر عن الإنسان لابد أن يكون فيه من هذا وذاك ، والعبرة بعد ذلك بالاختيار والانتقاء ، ونحن لا ندع زراعة الأرض ، لأن زارعها يتعرض لبعض الأمراض ، بل نزرع ونتوقى .

وأختم كلامي عن هذه المسألة بخلاصة هذه السطور السالفة كلها ، وهي أننا نحن المصريين ننتمي إلى الإنسانية جمعاء ، وهي تضم الشرق والغرب ، وحضارتنا هي الحضارة الراهنة التي تسمى غربية لأنها تضم خلاصة تجارب الأمم كلها ، بما فيها أمم الشرق .

وأما المسألة الرابعة ، وهي القول بأن « الحضارة الشرقية — والمقصود بها الحضارة العربية على وجه التحديد — لم تأخذ شيئاً عن غيرها ، وإنما هي

نبتت من تلقاء نفسها ولا فضل لأحد عليها ، وأنها فريدة فى بابها لا تشبهها ولا تدانيها حضارة أخرى ، فتحتاج إلى شىء من تأمل واستدراك. وقد ناقشت بعض نواحى هذه المسألة فيما سلف ، وأثبتُّ أن الحضارة العربية ، كأى حضارة أخرى ، لا يمكن أن تطفر من تلقاء نفسها ، كأنها شهاب هبط على الأرض من كوكب بعيد .

وهذا القول غير جائز فى طبائع الأشياء جملة وتفصيلا ، لأن الحضارة هى تجارب البشر وأجيالهم ، يتوارثونها جيلا بعد جيل ، وقد أقام العرب مملكتهم فى عالم متحضر كان يتألف من شعوب ساهمت فى بناء صرح الحضارة الإنسانية ، فورثوا ذلك وأقاموا عليه ، ونفخوا فى كيان هذه الأمم نفسها روحاً جديداً جدد من نشاطها ووهبها مثلا عليا جديدة لتسعى إليها ، ومن ذلك كله تكون تراث الحضارة الإسلامية ؛ فهى مدينة لغيرها وغيرها مدين لها .

ونحن إذا قلنا إنها قائمة بذاتها لم تأخذ عن غيرها شيئاً فنحن نظلمها ولا ننصفها ، لأن الإنسان إنسان بقدر ما يأخذ من الناس ويعطيهم ، وأما المتأبد فى القفر لا يأخذ ولا يعطى فلا فضل له على أحد ، وليس هو بالرجل الذى ينفع الناس أو الذى يعولون عليه . وكذلك الأمم ، لا تمتدحها بقولك إنها لم تأخذ من الناس شيئاً ، وأن الناس يعيشون على فتات موائدها .

وإنما القول الصحيح أن هذه الحضارة العربية كغيرها من حضارات البشر سواء بسواء ، أخذت وأعطت ، ووَرّثت ووُرثت . فيها ما ينفع البشر أجمعين ، وفيها ما يقتصر نفعه على العرب وحدهم – كأدب المقامة مثلا – وفيها ما يضر كما أن فيها ما ينفع .

وأما القول بأن شيئاً من أعمال البشر لا يدانيها ، ففيه من الناحية الإنسانية استعلاء على البشر مرذول ، وعصبية كثيبة حقيقة بأن تثير العداوات ، وليس من خصال الإنسان المهذب أن يتمسك بما يثير العداوات . ثم إن هناك كثيراً جداً من أعمال البشر يدانيها ، ومهما يبلغ من تقديرنا لأنفسنا ، فلا ينبغى أن يصل التقدير إلى حدود الأنانية أو التصور الصبيانى للأمور .

وأولئك الذين يتسامون بالحضارة الشرقية إلى هذا الأوج المفتعل ، إنما يعتمدون على قضية غير سليمة ، هى أننا روحانيون والآخرين ماديون ، وأن حضارتنا حضارة الروح وحضارة الآخرين حضارة المادة .

وأبسط علم « بما جرى فى التاريخ » – على حد تعبير جوردون تشايلد – يدلنا على أن حضارات البشر أجمعين تكونت من عناصر روحية وعقلية وأخرى مادية ، وأن عناية أجدادنا بالمادة لم تقل عن عنايتهم بالروح ، وأنهم حرصوا على الطعام الذى يؤكل بقدر حرصهم على الكتاب الذى يقرأ ، وأن الرجل منا ليس بدعاً فى تكوينه ، وأن

فينا من تستغرقهم أمور الروح وفينا من تستهلكه شئون المادة . وإننا إذا فاخرْنا غيرنا بالحسن البصرى وإبراهيم بن المبارك وعمر بن الفارض وذى النون المصرى ومحيي الدين بن عربى ، لفاخرنا غيرُنا بالقديسين أمبروزيو وفرنسيسكو الأسيسى وتوما الأكوينى ويوحنا الصليبى . وإذا فاخرناهم بابن سينا وابن رشد وأضرابهما ، لفاخرونا بديكارت وكانت ومن إليهما .

وشعوبنا – كبشر – فيهم هواتف الروح ونوازع المادة .

وإنما البشر جميعاً – شرقيين وغربيين – تغلب عليهم اليوم نوازع المادة ، لا عن انحطاط فى طبع البشر أو عن غلبة العناصر الغربية « المادية » فيما يزعمون ، بل لأن تطور الأحوال على ظهر كوكبنا ينحو بنا جميعاً نحو هذا الاتجاه .

ذلك أن البشر تضاعفوا بنسبة لم تكن متوقعة ، فقلت فرص الرزق أمام الناس ، فبينما كانت الأرض براحاً أمام الزارع فيما مضى يستطيع أن يزرع منها قدر طاقته ، وحسبه أن يطلق فيها بعض الدواجن والماشية ليعيش عن سعة ، أصبح المقدور له اليوم من ذلك كله شيئاً يسيراً ، لابد أن يجتهد فى استغلاله إلى أقصى حد ، ولابد أن يعمل من البكور إلى الغروب حتى يطمئن على رزقه ورزق عياله ، وينبغى أن يحسب حساب كل بيضة أو حفنة من دقيق أو إثارة من لبن ، حتى يستطيع أن يعيش.

وبينما كان الأوساط فى المدن فى الماضى قليلين والخير من حولهم كثيراً ، مما يسمح لهم بالتأمل والاستمتاع بندوات الأدب وسهرات المنادمة أصبح عددهم اليوم ضخماً والأسعار من حولهم غالية ، ولا بد لهم من النضال طول اليوم حتى يحصلوا رزقهم ، فلا يتسع وقتهم لأدب أو مطارحات شعرية أو منادمات ولا تأذن لهم الظروف بالمكارم وألوان التوسعة التى كانت شائعة بينهم فى الماضى ؛ وهذا أمر يشاهده كل منا فى نفسه . .

والأمر بالنسبة إلى الجماعات شبيه بذلك ، فلم يتغير البشر ولم يفسد طبعهم وإنما تغيرت الظروف من حولهم ، ومع تغير الظروف تغيرت الاهتمامات .

ثم إن العلم والصناعة قد وصلا إلى مبتكرات ومخترعات لا بد للإنسان من مال حتى يحصل عليها ، فقد كان أجدادنا يعيشون فى بساطة لا تكلف مالا ، فالطعام يطهى على موقد بسيط فى قدر تصلح لكل شىء ، فكانوا معفين من التفكير فى شىء اسمه « المطبخ » مثلا ، ففكّر الآن فيما استحدثوه فى هذه الناحية فقط ، وفيما ينبغى من المال لها ، وفيما ينبغى من العمل للحصول على ذلك المال !

ثم إن الإنسان مضطر إلى مسايرة ذلك كله والقيام بكل تكاليفه ، لا لأن قانوناً يقسره على ذلك ، بل لأنه لا يستطيع إلا المضى فى ذلك

الطريق . فهب أن رجلا منا أراد أن يستغنى عما استحدثته الحضارة من وسائل إعداد الطعام وأراد أن يعود إلى تهيئة طعامه فى القدر يضعها فوق موقد الخشب ، فأين له الخشب ؟ وأين له الخادم التى تقوم على نظافة الموقد ؟ وأين له البيت الذى يستطيع أن يسود حيطانه بدخان الفحم كيف شاء ؟

وهذا مثل تستطيع أن تقيس عليه .

فنحن نعيش فى عالم قد تغيرت ظروفه ، وتغير سلوك الإنسان فى هذه الظروف . وليس معنى ذلك حتما أن طبع الإنسان قد فسد ، أو أننا نعيش فى عصر مادى يوجه أموره نوع من البشر تغلب عليهم نوازع المادة .

فلا محل للابتئاس إذن ، ولا موضع للتشاؤم . . .

وليس من صالحنا أبداً أن نتخذ من ظواهر الأمور حججاً نستند إليها فى القول بعصبية لا معنى لها ، وترديد أنشودة تضر ولا تنفع : أنشودة الشرق الروحى والغرب المادى .

لأننا إذا أردنا أن نقدم لأنفسنا ولأولادنا فلسفة صالحة تنفعنا وتنفعهم فينبغى أن تكون هذه الفلسفة صحيحة لا زائفة ، وهى لا تكون صحيحة إلا إذا قامت على مقدمات سليمة تطابق الواقع ، وإلا كفر بها من أنار الله بصيرته من الأبناء ، وعاش أسير أوهامها من ختم الله على قلبه ، فلم ينتفع بها هذا ولا ذاك . .

وأنتقل بعد ذلك إلى القضية الرابعة التى تقول بأن « هذه الحضارة العربية هى أصل كل حضارة أخرى ، وأن العالم لم يضف إليها شيئاً إلى الآن ، بل إنه أفسد بعض نواحيها » .

فأما أنها أصل لكل حضارة ، فقد عرضنا لذلك فيما سلف بما فيه كفاية ، وأما أن العالم لم يضف إليها شيئاً إلى الآن ، فزعم استحدثه نفر ممن يحسبون أن المبالغات تزيد الحق بياناً والحجج قوة ، غير عالمين أن ذلك الأسلوب يضعف القضايا ويلقى فى النفوس شكاً فى قيمتها .

وهم يحسبون أن الإيمان بحضارتنا وحقوقنا لا يستقر إلا إذا شددناه بأمثال هذه الأقوال ، وهو أمر لا تخمد مغبته ، لأن سامع هذا الكلام لا يلبث أن يرى من واقع الأمور ما ينقضه ، فيعسر بعد ذلك حمله على الإيمان بشىء ، وهو فى ذاته أمر خطر ، لأن الشعوب إذا فقدت الثقة فيما يلقى إليها من القضايا ، داخل الشك نفوسها فى كل شىء ، وأصبح من العسير ردها إلى الإيمان بالمبادئ السليمة والكرامة الإنسانية ، وهو أمر لا يستقيم معه أمر جماعة إنسانية . ولقد فسد أمر مصر القديمة عند ما فقد الصفوة من أهلها الإيمان فى كهانها ، بسبب إسراف أولئك الكهان فى عصور الاضمحلال فى الدعوة لآلهتهم . وحدث مثل هذا للإغريق بعد القرن الخامس قبل الميلاد ، عند ما أوغل الشك فى قلوب الناس من ناحية السياسة ورجالها ، بسبب إسراف هؤلاء فى الوعود والتهاويل . وهذا أيضاً

هو الذى اجتاح أوروبا خلال القرن السابع عشر نتيجة لإسراف رجال الدين فى الحديث عن القديسين والأحبار والبابوية ، وقد سخر ڤولتير من ذلك الروح فى قصته اللطيفة « كانديد » .

وليس أسلم فى مثل هذه القضايا من أن نقرر الواقع ، فإن الواقع أقوى الحجج .

ونحن إذا ذهبنا نقول إن العالم لم يستحدث بعدنا شيئاً ، وأن الطائرة أشار إلى فكرتها ابن فلان ، والقاطرة ذكرها أبو علان ، والنظرية الذرية نجدها بحروفها عند الـلانى ، لم يلبث الناس أن يتخذوا من ذلك المذهب منا مادة فكاهة . وخير من ذلك أن نصل بالأمور إلى مداها المعقول ، وندعها هى تدعو لنفسها بنفسها .

ومن مخاطر الدعوات أن يلجأ أصحابها إلى ما يلجأ إليه محدث النعمة الذى يملك القليل ، فلا يكف عن الحديث عنه ، فيركبه الناس بالسخرية أو المفتون بأبيه أو جده ، فلا يزال يتحدث عنه حتى يسأم الناس حديثه ، أو الشاك فى أصالة نفسه ، فلا يزال يلتمس لنفسه الأحساب ينمقها ويزوقها ، على مثال شجرات الأنساب التى كانت تباع وتشترى . أما صاحب النسب الصريح فقلما يتحدث عنه ، وهو إذا ذكره لم يحاول إنكار ما عسى أن يؤخذ على بعض أجداده ، ثقة منه فى نفسه وفيهم .

ونحن لا يصدقنا أحد إذا قلنا إن أحداً لم يضف إلى ما وصل إليه

أجدادنا شيئاً ، لأن الناس كلهم يرون أن البشر أضافوا بعدنا كثيراً وها نحن نأخذ عنهم العلم ومذاهب الفكر ، ويرون أن الذين أتوا من بعدنا لم يفسدوا شيئاً من نواحى حضارتنا الماضية ، وإنما هى بلغت الحد الذى قدر لها أن تبلغه ثم كلت قواها شأنها فى ذلك شأن غيرها من حضارات البشر . وتلك سنة البشر مع العمران منذ بدء الخليقة ، فلا يقلل من شأننا أننا وقفنا عند حد بعينه وليس لغيرنا أن يفخر علينا بأنه سار من حيث وقفنا .

والمسألة الخامسة التى أعرض لها هنا — وهى آخر ما أمر به فى سياق تحديد علاقتنا بحضارة الغرب — هى قولهم أننا إذا كنا نريد أن نعيش فواجبنا الأول هو القضاء على كل أثر من آثار الحضارة الحديثة فى بلادنا ، وتنقية حضارتنا العربية والعودة بها إلى جوهرها السليم الصافى الذى كانت عليه .

وهذا الزعم نادت به جماعات من السلفيين الذين يحسون فى أنفسهم العجز عن مواجهة الحاضر ، فهرولوا إلى الماضى ليدفنوا رأسهم فيه .

وغالب أولئك من طلاب المجد عن طريق جهاد الكلام وشقشقة اللسان ، أو طلاب السلطان عن طريق تضليل الناس وخلق الأوهام فى أذهانهم والتصدى لمحاربتها بعد ذلك .

وهؤلاء جميعاً إنما يستغلون ناحية العاطفة عند الناس ، وهم يحسبون أنهم

يفعلون خيراً عند ما يثيرون فى قلوب الناس كوامن الحسرات على ما فات ، ثم إيهامهم بأن العودة إلى الماضى ممكنة ، وأن السبيل إلى ذلك هو إسلام القياد لهم ، وهم يعرفون كيف يقودون أهل القرن العشرين إلى عز القرن العاشر . .

وقد جنى أولئك الناس علينا جنايات شديدة ، وسيطروا على عقول نفر من الشبان ، وزعموا لهم أنهم يقودونهم إلى المجد ، فلم يقودوهم إلا إلى العطب . وقادهم إلى المجد الصحيح بعد ذلك رجال هذه الثورة الذين نقلوا هذا الشباب من عالم الأوهام والتضليل وجهاد الكلام إلى عالم الحقائق والواقع ، وعلموه ما هو الجهاد الصحيح وما هو العمل المثمر ، فلم تلبث الآمال أن تحققت ، ولم يلبث وضعنا العام أن تصحح وأخرجنا العدو من بلادنا وانتهجنا سياسة الإنتاج والتعمير والإنشاء ، وهى وحدها كفيلة بتحقيق الآمال ، ووصل ما انقطع من تاريخنا الطويل .

وقد وقفت هنا هذه الوقفة الطويلة لكى أعبر بالقارئ المصرى فجوة أوجدها نفر ممن لا يتمثلون فى أذهانهم شخصية بلدنا على وجهها الصحيح ، ولا يتصورون لذلك اتجاه هذا التاريخ فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، ويحسبون ألا صلة لنا بهذا الغرب ، بل يرون أننا لا بد أن نعادى حضارته ونحاربها ، لأنها غريبة عنا منافية لطبيعتنا .

وقد بينت الآن بالقدر الذى سمح به هذا الحيز أن هذه الحضارة

الغربية إنما هى حضارتنا نحن ، وأن أبوتنا لها تفرض علينا اتصالنا بها والإسهام فيها .

بقى أن أضيف بضعة سطور عن حضارة البحر الأبيض ، التى هى حضارة الغرب اليوم .

ذكرت كيف وُضعت أسس حضارة البحر الأبيض ، وكيف رسمت لها من بعيد خطوطها الرئيسية . وحضارة البحر الأبيض هذه هى الحضارة الراهنة محسنة مزيدة ، فقد انتقلت من المصريين إلى الإغريق ثم إلى الرومان ، ثم احتفظت الكنيسة الكاثوليكية بلبابها عند ما غزا الجرمان أراضى الدولة الرومانية ، فلما استقرت ممالكهم أخذوا هذه الحضارة عن طريق رجال الكنيسة وأحبارها ، وأضافوا إليها القليل الذى كان لديهم ، ومن هذا وذاك كانت حضاراتهم فى غالة — وهى فرنسا — وبلاد السكسون — وهى ألمانيا — والجزر البريطانية .

وقد حمل دعاة الكنيسة لباب حضارة البحر الأبيض إلى نواحى القارة الأوروبية كلها : أدخلوا شعوبها فى المسيحية ولقنوهم اللاتينية وآثار الفكر اللاتينى ، أى أنهم مدوا نطاق حضارة هذا البحر حتى شمل القارة الأوروبية كلها ، وأصبح أساس عمرانها متوسطياً . ومن ثم فهذه الحضارة الأوروبية التى نراها اليوم إنما هى حضارة البحر الأبيض ، التى وضعنا نحن أسسها فى الأعصر القديمة وساهمنا فيها فى الأعصر الوسطى ، فكيف

يقال لنا إنها حضارة غريبة عنا ، وأننا غرباء عنها ، وأنها تتعارض مع طبائعنا وجوهر تمدننا . . ؟

وكيف تقف حدود رسالتنا عند أبواب هذه الحضارة ؟ كيف لا نعتبر أنفسنا من بناتها ومن المسئولين عن مصائرها ؟ وكيف لا نطالب بنصيبنا فى قيادتها ؟

إن مصر التى أنشأت هذه الحضارة ، وأسهمت فى حضارة الشرق بأوفر نصيب ، وجاهدت فى سبيل حضارة إفريقية لا يمكن أن تقصر رسالتها على جانب دون جانب من هذه العوالم ، وموقعها الجغرافى نفسه يملى عليها ذلك ، فهى ميزان هذا العالم القديم ونقطة ارتكازه وملتقى قاراته الثلاث ، وواجبها حيالها كلها واحد : واجب الأب نحو الأبناء ، ورسالتها فيها كلها واحدة : سلام وعرفان .

فإن قال قائل إن ذلك مبالغة منا فى تقدير رسالتنا ، فليأذن لى فى أن أقول إنه لم يدرك بعد كنه تاريخنا ولا العوامل المحركة له على طوله ، وليأذن لى فى أن أقول إن أى تحديد لمدى رسالتنا هذه لا يعود علينا بغير الكوارث .

أتدرى كيف ؟

إليك البيان . . .

* * *

وقفت معك بالكلام عن نصيب مصر فى حضارة الأعصر القديمة والوسطى عند أبواب مصر الإسلامية، ولكنى لم أقل لك شيئاً عن هذه، وأنت حقيق بأن تعرف حقيقة ما جرى فى ليل ذلك التاريخ الطويل .

عندما فتح العرب مصر عام ٦٤٠ كانت ولاية بيزنطية تحكم من القسطنطينية .

وعندما غزا الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨ وجدوها ولاية عثمانية تحكم من نفس القسطنطينية التى حملت اسما جديداً هو استامبول، أو الآستانة .

ولم يكن حالها عام ١٧٩٨ بأحسن من حالها عام ٦٤٠ ، كان الناس فى بؤس وذل وكان البلد فى خراب .

فكأن اثنى عشر قرناً من تاريخ هذا البلد ضاعت سدى . كأن هذه السنوات الكثيرة قد انقضت ونحن نيام بعيدين عن الوجود !

شىء لم يحدث فى تاريخ بلد مثل مصر أبداً . . تصور اثنى عشر قرناً ونصفاً تذهب سدى !

قد يقال : قامت خلالها دول وكانت أمجاد . . ولكنها تلاشت كأن لم تغن بالأمس ، وعاد المصرى — وهو مدار هذا التاريخ المصرى ومقياسه — بالضبط كما كان فى أواخر أعصر الرومان . .

ما الذى حدث ؟

الذى حدث أننا تخلينا عن رسالتنا ، واتجهنا بكليتنا نحو الشرق ،

فاختل ميزان تاريخنا ، وكان ذلك الانكسار العظيم .

ذلك أن حكام مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى أوائل القرن التاسع عشر كانوا أسيويين . بعضهم أتى من آسيا واستقر فى بلادنا حاكما ، والبعض الآخر ولد فيها وظل محافظاً على أسيويته . صحيح أن الكثيرين منهم تمصروا ، ولكن هذا التمصر لم يتعد بعض المظاهر ، ولم يمس الروح إلا فى النادر ، وذلك لأن الأمور فى مصر وبقية العالم الإسلامى كانت من القلق بحيث لم تسمح لأولئك الحكام بأن يتشربوا روح البلد الذى استقروا فيه وقاموا على مصائره . وقد تعاقب حكام العرب فى عصر التبعية للخلافتين الأموية والعباسية فى سرعة حالت بينهم وبين أن يتأثروا مجرد التأثر بهذا البلد ، ثم بدأت الدول المستقلة ، ومعظمها قصير العمر قليل القوى بحيث لا نستطيع أن ننتظر منه شيئاً كثيراً ، ولم ينفسح الأجل إلا لواحدة منها ، وهى الفاطمية ، فقد حكمت مصر ٣٠٢ سنة تقاسمها فيما بينهم أحد عشر خليفة ، ولم تستقر الأحوال إلا للثلاثة الأول منهم ، وهم المعز والعزيز والحاكم ، ثم بدأ القلق والخوف والاضطراب الذى لم يسمح لخلفاء الفاطميين بالتأثر بطبيعة بلادنا .

ومثل هذا يقال عن الأيوبيين . فقد شغلتهم أمور الحرب الصليبية والأخطار المتوالية عن النظر فى أمور مصر بعيون مصرية . وكذلك المماليك ، لا نستطيع أن نعتبر حكمهم عصراً واحداً أو عصرين ، وإنما

هى عصور متلاحقة ، قام على توجيه سياسة مصر خلال كل منها رجل يختلف فى الغالب على سابقه فى المزاج والتكوين والاتجاه ، بل فى الجنس. ولم يتأثر أولئك المماليك فى مجموعهم بمصر إلا على نحو ضئيل جداً لا يكاد يذكر . فقد أراد لهم الحظ السيئ أن ينهجوا فى حياتهم العامة والخاصة نهجاً غير سليم ولا إنسانى ، وما رأيك فى ناس كانت حياتهم كلها فوق ذلك التل القاحل الذى هو جبل المقطم ؟ هناك ، وحول قلعة صلاح الدين أنشأوا معسكراتهم المعروفة بالطباق، وبيوتهم . وكان الماء يصل إليهم على سقاية عالية ويدفع إليها بواسطة سواق بعضها فوق بعض لا زال موضعها يعرف إلى اليوم « بالسبع سواقى » فى مدخل مصر القديمة . وكان الطعام يحمل إليهم يومياً من الوادى كأنهم جيش محاصر ! هذا والوادى من تحتهم أخضر زاهر ، والناس حضر فيهم أنس وبركة ، ومع ذلك فقد ظلوا حياتهم بعيدين عن الناس والناس بعيدين عنهم لا الناس متأثرون بهم ولا هم متأثرون بالناس. والواحد منهم يؤتى به صبياً ، فينشأ كاليتيم ، يربيه مملوك عجوز لا يعرف غير العصا ، ويقضون حياتهم كالزنابير فى عش ، لا هى تألف ما حولها ولا ما حولها يطمئن إليها .

ثم كان الأتراك العثمانيون وهم خاتمة المطاف ونهاية هذا الخيط الطويل من أولئك الأسيويين . ولقد عاش أولئك الأتراك فى مصر ما قدر الله

لهم أن يعيشوا، دون أن يقبسوا حتى لغة البلاد ، فكيف نرجو — وهذا حالهم — أن يأخذوا عنا أو يتأثروا بنا أو يتعرفوا علينا ؟

وليس هنا موضع تحليل سياسات أولئك الحكام أجمعين ، ولكنه موضع الإشارة إلى حقيقة واحدة هي التي تعنينا هنا : هي أن أولئك الناس جميعاً أقاموا فى مصر ما أقاموا وعيونهم مثبتة نحو الشرق ، ونحو آسيا . .

كان همهم جميعاً موجهاً نحو جناحنا الشرقى ، وظلت اهتماماتهم أسيوية ، ولقد أنفق أحمد بن طولون على بلد مثل طرسوس أضعاف ما أنفق على القاهرة نفسها ، واستنفد جزءاً كبيراً من قواه فى التنافس مع رجل كابن رائق . وقضى الأيوبيون والمماليك معظم أيامهم فى الشام ، ولقد كان ذلك ضرورياً لتأمين مصر من الأخطار من هذه الناحية ، ولكنه شغلهم تماماً عن الاتجاهات الأخرى التى ينبغى أن تشغل حاكم بلد كمصر ، يقوم وسط الدنيا : له شرق وغرب وجنوب ، كلها فى حاجة إلى التفاته وعنايته ، وشماله بحر هو من بناة حضارته ، وله فى مصائره كلمة يقولها . شغلهم الاستغراق فى الناحية الأسيوية عن جبهات مصر الأخرى : الجبهة الإفريقية وهى ذات شقين : واحد فى الجنوب وواحد فى الغرب ، وشغلهم عن جبهة البحر الأبيض ، فانصرفوا عنها تماماً ، وضاعت علينا بذلك ميزات ذلك الموقع الجغرافى الهام ، ولم نجن من خيراته شيئاً ، بل تعرضنا بعد ذلك لعواقب إهماله : إذ نهضت الأمم

على حفافى ذلك البحر ونحن فى سبات عميق ، وأفقنا آخر الأمر فإذا أقوام من وراء ذلك البحر يطرقون أبوابنا غزاة فاتحين . . .

وقد يدهش القارئ إذا علم أن بلاد النوبة ظلت مسيحية حتى القرن الرابع عشر الميلادى ! . الإسلام فى مصر من القرن السابع ، ومع ذلك لم يعن واحد من حكام مصر هؤلاء بالالتفات نحو هذه الناحية ، وظلوا قانعين بشيء يسمى « البقط » وهو هدية من العبيد تقابلها هدية من بقول مصر . . وكان الله يحب المحسنين ، كما يقولون . وإذا كان الإسلام قد انتشر فى النوبة بعد ذلك ، فقد كانت لذلك عوامل أخرى غير عناية الحكام . . .

وقد يدهش القارئ أيضاً إذا علم أن جناح الإسلام الغربى انهار حجراً حجراً ونحن لا ندرى ! سقط الأندلس وضاعت جزائر البحر واحتل الإسبان بعض شواطئ المغربين الأقصى والأوسط — وهما ما يعرف اليوم بمراكش والجزائر — بل غزا النورمان من صقلية بلاد تونس أكثر من مرة ، واحتل الإسبان طرابلس الغرب ، ثم أقطعوها لفرسان مالطة ، ونحن لا ندرى . . .

وليس معنى ذلك أنى أقول إن مصر كان ينبغى أن تستنقذ الأندلس وتحمى جزائر البليار وصقلية وشواطئ المغرب ، فهذا لم تكن تستطيعه قواها ، ولكن مصر لو كانت يقظة منتبهة لما يجرى هناك لاستطاعت أن

تنبه عالم الإسلام إلى الخطر الماثل ، وتدفعه إلى حشد قواه لملافاته ، ولو أنها فعلت ذلك لنجت الجبهة الغربية الإسلامية من شر كثير .

ولست ألقى هذا الكلام على سبيل الفرض والاحتمال ، بل أقوله و بين يدى البرهان ، وهو برهان واضح نستخرجه من حادث معروف هو الحروب الصليبية .

فلقد كانت مصر قد أغمضت عينها عن الشرق فترة من الوقت فى أواخر العصر الفاطمى ، فلم تكد تفعل حتى تهدمت الجبهة الشرقية وصارت حطاماً ، وتقسّم بلادَها الحكام والطامعون ، فصار فى كل بلد كبير من بلاد الشام وفلسطين والعراق حاكم بأمره يغازى جيرانه و يعاديهم ، وتراجعت حدود مصر الشرقية حتى وقفت عند عسقلان على شاطىء فلسطين . . .

وفى أثناء هذا السبات الذى استولى على مصر نزل الصليبيون الشام فلم يجدوا من يردهم ، وما هى إلا سنوات حتى تقاسموا معظم أراضيه ممالك وحولوه إلى إمارات صليبية .

ثم استيقظ المسلمون وأخذوا يجمعون قواهم لدرء الخطر الداهم ، وقد بدأت اليقظة فى الموصل على يد حكامها ، وكانوا يعرفون بالأتابكة ، وأخذ هؤلاء يغالبون الصليبيين ، وأسعفهم الحظ برجال من خيرة من أطلع

العالم الإسلامى من أمثال آق سنقر ومودود ونور الدين زنكى ، وفى أيام هذا الأخير بلغت اليقظة الشرقية ذروتها ، وتمكن المسلمون من استرجاع مملكتين مما كان الصليبيون قد أنشأوه : وهما إمارتا الرها وطرابلس ، ولكن الجهود كانت حتى نهاية أيام زنكى مفرقة مبعثرة . ولقد كان هذا الرجل العظيم — على مهابته وإخلاصه — يأمر الأمر فيعصاه فيه صاحب دمشق أو صاحب حماه ، وكان هو يحارب الصليبيين ، ومَن حوله يحالفونهم ويعينونهم عليه . . ولو استمر الأمر على ذلك لما خلص الشام من الصليبيين أبداً .

ثم انتقل مركز القيادة الإسلامية إلى مصر ، وتولاها صلاح الدين الأيوبى . ولقد تعودنا أن نرد بطولة صلاح الدين إلى شخصه فحسب ، دون أن ندخل العامل المصرى الذى جعله ذلك البطل العظيم . ولو أن صلاح الدين اعتمد على ملكاته وحدها لما وفق إلى أكثر مما وفق إليه نور الدين زنكى ، لأن نور الدين لم يكن أقل عبقرية من صلاح الدين ، ولكن مصر كانت مع هذا الأخير ، فكان ما كان من توفيقه العظيم .

ذلك أن بلدنا هذا قاعدة عظمى ومركز توازن من الطراز الأول ، من يستقر فيه يكسب شيئاً عظيماً بمجرد هذا الاستقرار ، مثله فى ذلك مثل الربوة العالية فى الميدان، من ملكها فقد ساد الميدان كله، ومن لم يملكها ظل الأمر خارجاً عن يده ولو ملك كل شبر من الأرض عداها .

ومن هذه القاعدة الكبرى استطاع صلاح الدين أن يمسك بزمام الموقف ويوجه قوى الشرق كلها ، فلم يلبث أن اقتلع جذور الصليبيين .

ومعنى هذا أن الشرق نجا من الصليبيين بفضل التفات مصر نحوه ، وهو لم ينج منهم وحدهم ، بل نجا أيضاً من المغول لهذا السبب عينه .

بل حدث بعد ذلك ما يؤيد ما نقول بأجلى بيان :

حدث أن أهملت مصر تلك الجبهة الشرقية أواخر عصر المماليك : إذ كانت هممهم قد فترت فاكتفوا بعد أيام السلطان قايتباى ، أى بعد سنة ١٤٩٦ ، بأقل الجهد فى بلاد الشام ، وفسدت طبائع المماليك وداخلت الخيانة قلوبهم فضعفت قبضة مصر على الشام . وفى ذلك الحين التفت الأتراك العثمانيون إلى الشرق يغزون بلاده واحدة فواحدة ، ولم يقدر المماليك الخطر العثمانى قدره الصحيح ، فكانت النتيجة أن وقع هذا الشرق العربى كله فى يد العثمانيين ، وسقطت مصر نتيجة لهذا أيضاً .

ولو أن التفات مصر لأمور الشرق ظل كما كان أيام المماليك الأول فأغلب الظن أن سلاطين بيت عثمان ما كانوا ليطمعوا فى هذا الشرق العربى وما كانوا ليتجهوا إليه . فقد كان اتجاههم — منذ ظهروا على مسرح التاريخ — غربياً يمضى بهم نحو التوسع فى الغرب ، وما لفتهم إلى الشرق إلا ما لاحظوه من ضعفه ، وهو لم يضعف إلا عندما انصرفت عنه مصر .

ولقد كانت مصر قمينة أن تؤدى للجبهة الغربية الإسلامية مثل هذه الخدمة لو أن عيون حكامها كانت ملتفتة إليها ، لو أن عنايتها بشئون البحر الأبيض اتصلت على ما كان ينبغى أن تتصل عليه ، لأن مصر هى التى كسبت للإسلام سيادة الحوض الشرقى للبحر الأبيض ، ولو أنها مدت يدها لأهل المغرب والأندلس أثناء محنتهم الطويلة لما حدث هذا الذى كان ، أو لنجونا من بعضه على أقل تقدير .

وقد لا يعلم بعض الناس شيئاً عن أثر مصر فى بناء البحرية الإسلامية . قد لا يعلمون أن مصر كانت مصنع السفن الحربية الإسلامية : كان الجزء الأكبر منها يصنع فى « دور صناعة » أو « ترسانات » عند جزيرة الروضة ، ثم تصعد فى النيل إلى البحر ، وبفضل هذه السفن المصرية ومن كان يعمرها من نواتية المصريين كسب المسلمون موقعة ذات الصوارى ، وهى التى ثبتت أقدام المسلمين فى حوض البحر الأبيض الشرقى ، وهى من المواقع الحاسمة فى تاريخه ، لأنها انتزعت سيادة البحر من أيدى البيزنطيين وأسلمتها إلى المسلمين ، فبدأت فى تاريخ هذا البحر الفترة الإسلامية المعروفة التى استمرت حتى نهاية القرن العاشر الميلادى .

والملاحون المصريون هم الذين أنشأوا ميناء تونس ، فقد روى المؤرخون أن عامل تونس حسان بن النعمان عندما هدم ميناء قرطاجنة

البيزنطى وأراد أن ينشئ للمسلمين ميناء جديداً ، بعث إلى عامل مصر يطلب إليه نفراً من المصريين المدربين على مثل هذا العمل ، فأرسل إليه ألفاً منهم بعائلاتهم ، وهم الذين أنشأوا ميناء تونس ، قاعدة الإسلام فى الجزء الأوسط من حوض البحر الأبيض .

ولقد هاجم النورمان صقلية الإسلامية وتغلبوا عليها بأيسر مئونة ، دون أن ينتبه لذلك أحد من أهل مصر ، ولو أن حكام مصر كانوا ملتفتين إلى الغرب لكان حسبهم أن يرسلوا حملة يسيرة تدرأ الخطر النورمانى ، ولم يكن بهذه القوة التى يتوهمها الناس ، فإنهم كانوا يهاجمون البلد الإسلامى الكبير فى صقلية مثل سرقوسة وطبرمين بقوات يسيرة لا تزيد على الآلاف الثلاثة ، وكانت أيسر مقاومة تديرة على أن توقفهم شهوراً ، وإنما هم استغلبوا هذه الجزيرة الكبيرة لأن المسلمين جميعاً تركوها وشأنها ، بل اختلف أهلها بعضهم على بعض وتنابذوا ، فأكلهم العدو أفراداً . . .

ومن غريب الأمر أن ذلك العبقرى صلاح الدين أوحى إليه المقام فى مصر فكرة الالتفات نحو الغرب ، وربما كان هذا الرجل أعظم من تنبه إلى أهمية موقع مصر فى العصور الوسطى ، فبعث من يستطلع له الأحوال فى برقة ، وبعث من يمهد له أمر النوبة ، بل مد بصره إلى اليمن . . أى أنه تصور موقع مصر جيداً ، ونظر فى كل وجهة . ويقال

إن دافعه إلى ذلك كان الخوف من نور الدين زنكى ، أى أنه كان يبحث عن قطر يلجأ إليه مع آله إذا وقعت الخصومة بينه وبينه . ولكنها يقظة عجيبة منه على أى حال ، يزيد فى قدرها فى نظرنا أن بصره ترامى إلى قاصية هذا البحر فى الغرب ، وبعث إلى خليفة الموحدين يعرض عليه أن يتعاونا فى القضاء على الصليبيين وانتزاع سيادة البحر من أيديهم . ولم يوفق المشروع ، ولكن ذلك لا يقلل من قيمة هذا التفكير الفريد ، وهو يدل على أن رجلا واحداً فقط من بين العشرات الذين حكموا مصر خلال العصور الوسطى ، قد تفطن إلى معنى موقعها ، وفكر فى الإفادة منه ، وليس بغريب أن يكون هذا الرجل هو صلاح الدين .

فى خلال هذه الأعصر كلها اتجهت مصر بكليتها نحو الشرق وأهملت الاتجاهات الأخرى التى لابد لها من أن تضع عينها عليها حتى يستقيم تاريخها ، فاختل توازن هذا التاريخ ، وكان الانكسار الذى أشرنا إليه . . .

ولم يجن على مصر شىء قدر انصرافها عن جبهة البحر الأبيض ، فقد قلنا إن لمصر فراغاً فى هذا البحر عليها أن تملأه ، ولها رسالة فى حوضه عليها أن تقوم بها ، وعليها مسئولية عن حضارته لابد أن تقوم بها . فإذا هى قصرت فى ذلك أصابها ما يصيب الرجل الذى يتخلى عن

مسئوليته وينسى واجبه ويهمل رسالته ، فيحل غيره محله ، ويخمله الناس ويذهب أمره .

لقد استمرت مصر تحمل مسئوليتها عن حضارة البحر الأبيض حتى الفتح العربى وفترة طويلة خلاله . ولكن ذلك الاهتمام بالبحر لم يلبث أن تضاءل ، لأن العرب حرصوا على أن يقطعوا صلات مصر بالبحر وما يليه ، قطعاً لكل أمل للروم فى العودة إلى مصر ، وتأميناً لها من أخطار الغزو من وراء البحر .

وشيئاً فشيئاً أقفل هذا الباب ، وانقطعت علاقات مصر بالبحر ، وفقدت الإسكندرية أهميتها ، وتحولت إلى قرية على البحر . أجل ! هذا البلد الذى كان درة البحر الأبيض ، والذى وجده العرب لدى دخولهم عجيبة من عجائب الزمان : بيوته من المرمر وقصوره من الفضة والذهب كما يقولون — هذا البلد الذى هو رئة مصر التى تتنفس بها ، لم يعد له فى تاريخ البحر الأبيض مكانة تذكر . .

وكان هذا الفصل بين مصر وعالم البحر الأبيض نذيراً بالنكبات ، لأن هذا البحر ظل مهد الحضارة الإنسانية حتى نهوض الولايات المتحدة وانتقال مراكز القوة — والحضارة معها — إلى شواطئ المحيط الأطلسى الشمالى . وقد ظلت الحضارة تنتقل على ضفافه من بلد لبلد ، وكلما وهن أمر شعب من شعوبه وعجز عن السير بالشعلة الخالدة تناولها منه

شعب آخر وسار بها ، وعندما أهملنا نحن البحر الأبيض ، واتجهنا ببصرنا إلى الشرق وحده ، نهض بعبئها غيرنا، وكان لهذا أسوأ الأثر على مصيرنا .

ذلك أن شعوب أوروبا التى ولدت خلال العصر الوسيط الأول وجدت نفسها عندما ثبتت قوائمها عاطلة عما ينبغى للدولات من نظم وآلة ، ،أمدها رجال الدين — وكانوا أهل الفكر والفهم فى أوربا خلال العصر الوسيط — بما حضرهم من بقايا النظم الرومانية وقوانينها . ولم يكف هذا القليل من تراث الرومان لكل مطالب هذه الدول التى نشأت فى ظروف جديدة تختلف عن ظروف الرومان ، وكان لابد لها من توسيع أفق هذه البقايا من حضارة البحر الأبيض بأشياء مما جلبته معها من مهاجرها الأولى ، وامتزج هذا بذاك ، ونشأ منه هذا النظام الفريد الذى يعرف بنظام الإقطاع ، الذى ساد أوربا الغربية والوسطى كلها حتى نهاية القرن الخامس عشر على الأقل .

وليس هنا موضع الكلام عن نظام الإقطاع ، ولكن الذى يهمنا هنا أن نقرر أنه نظام زراعى مقفل تحولت معه أوربا إلى شعوب من الزراع ، يحكمها نفر من محترفى الحرب يعرفون بالفرسان ، ونفر من محترفى الدين هم رجال الكنيسة : لهؤلاء السيف ولأولئك القلم كما نقول ، وبقية الناس أتباع وخول ، متدرجين فى هرم اجتماعى قاعدته الزراع

ورقيق الأرض والعبيد وقمته أصحاب الإقطاعات الكبيرة ومنهم الملك ، وهو أكبرهم . .

وفى داخل هذا المجتمع الزراعى الحزين، بدأت تظهر جماعات من الصناع ، ما بين نجار وحداد ونساج وصانع جلود وما أشبه مما لا تستغنى عنه جماعات البشر ، ونظراً لوفرة المعادن والأخشاب والجلود فى أوروبا ، ونظراً لما تتطلبه الظروف الجغرافية من تجويد الصنعة ، فقد خطا صناع ذلك العالم الإقطاعى خطوات فسيحة فى سبيل تجويد صناعاتهم . ذلك أن الذين يعيشون فى جو لين كجونا لا يعرفون قيمة تجويد الصنعة ، ولا يعرفون لهذا قيمة الصانع الماهر ، فأنت إذا طلبت من يصنع لك نافذة ، لم تتحر أن ينجزها لك محكمة أشد الإحكام ، لأن تيار الهواء الرفيع الداخل لن يؤذى أذى بالغاً ، أما إذا كنت فى هذه البلاد الباردة فإن هذا التيار الذى يهس فى الليل هسيساً إنما يحمل إليك الزمهرير ، وقد يكون خطراً على الحياة . ومثل هذا يقال عن نجارنا ونجارهم وإسكافنا وإسكافهم ، ومن ثم فلا حياة للصانع غير المجود فى مثل ظروفهم ، ومن ثم أيضاً وصل صناعهم إلى درجة عالية من الحذق فى صياغة المعادن وسبقونا فى هذا الميدان ، ونحن لا ندرى ، فابتكروا من السيوف والحراب ودروع الحديد ما لم يكن يخطر لنا على بال ، وما كان حاسم الأثر فى تقرير مصير العالم فيما بعد .

وعند ما التقى المسلمون مع النصارى فى الأدوار النهائية التى قررت مصير الأندلس، أدرك المسلمون هناك خطورة هذه الأسلحة الجديدة التى وصل إليها خصومهم ، وفقدوا المعارك واحدة بعد أخرى ، وخرجت البلاد من أيديهم بلداً بعد بلد . ولقد استهلك كفاح الإسلام النصرانيةَ أهلَ الأندلس الإسلامى واستنفد قواهم ، وأضعف — إلى جانب ذلك — جيرانهم من أهل المغرب ممن خف لنصرتهم . وإذا كان المسلمون قد فقدوا صقلية أولاً ، والأندلس ثانياً ، فإن العامل الأقوى فى ذلك يرجع لسلاح النصارى . فإن جموع المسلمين فى المعارك لم تكن أقل من جموع خصومهم ، وظلوا على ما عهدناهم عليه من شجاعة وبسالة ، ولكن الآخرين كانوا يلقونهم بدروع لا تنفذ فيها السيوف ، وحراب مصمية وسيوف مرهفة وأدوات حرب أخرى كانت تحصد المسلمين حصداً . ولم يقبس المسلمون فى الغرب الإسلامى هذا السلاح إلا بعد فوات الأوان : بعد أن انكمش الإسلام الأندلسى ، واقتصر أمره على قطعة من الأرض فى الجنوب هى مملكة غرناطة .

هذا كله حدث ونحن لا ندرى ، ولو عرفنا بأمره لتداركنا أمرنا ، ولكننا كنا قد أغلقنا أبواب البحر فلم نعد نعلم مما يجرى وراءه شيئاً .

وقد فوجئنا بذلك أول نزول الصليبيين ديارنا ، وفى أثناء الصراع بيننا وبينهم جددنا سلاحنا ، واقتربنا منهم ، وتعادلنا معهم ثم غلبناهم

وأخرجناهم من ديارنا بعد كفاح مرير .

أخرجناهم من ديارنا ولم ننتبه إلى ضرورة الالتفات إلى ما يجرى فى بلادهم من وراء البحر ، أخرجناهم وأغلقنا بابنا مرة أخرى ، ووقعنا فى نفس الخطأ . ولو أننا لم نغلق الباب هذه المرة ، وتركناه مفتوحاً لنعلم ما يدبرون وما يصنعون لما فاجأونا هذه المفاجأة الهائلة خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، فكسروا الدولة العثمانية وأوقفوا تقدمها ، ثم أخذوا يستولون على ما افتتحه سلاطينها فى أوروبا شيئاً فشيئاً .

وكنا نحن فى مصر نحسب أن الأوروبيين — بعد أن عادوا إلى بلادهم بعد الحروب الصليبية — قد ظلوا على حالهم كما ظللنا نحن على حالنا ، فعدنا إلى ما درجنا عليه من تفاهات الخصومات ومظالم الحكام ، حاسبين أن الدنيا كلها هكذا ، وأننا ما دمنا نتقن المبارزة بالسيوف وركوب الخيل وشئون الفروسية فلن يغلبنا أحد .

وعلى هذه الحال من الاغترار بأنفسنا وبالدنيا فاجأنا الفرنسيون عند ما نزلوا بلادنا فى صيف ١٧٩٨ . ولقد بلغ من غفلة القائمين على أمورنا إذ ذاك — وكان يمثلهم المملوكان مراد وإبراهيم — أن سخرأولهما من الفرنسيين وقال إنهم « كحب الفستق للأكل والكسر » ، ثم لم تلبث معركة شبراخيت أن أيقظته من سباته ، وأفهمته أى الفريقين « حب

الفستق » . وكان هذا إيذاناً بعصر الاستعمار الطويل الذى لم نتخلص منه إلا بالأمس القريب .

هذا كله أتانا من إغلاق باب البحر الأبيض وإغفالنا ملاحظة ما يجرى فى حوضه ، ولو أن بابه ظل مفتوحاً ، ولو أن ناساً منا كانوا يجوسون خلال دياره لما حدث ذلك ، ولما حدث على هذه الصورة المزرية على الأقل . .

ورب قائل إن المماليك كانوا على صلات بالبنادقة ، وأنهم أخذوا عنهم استعمال البارود وبعض السلاح ، ولكن ذلك كان ضئيلا جدا من ناحية ، ثم إن المماليك لم يتصلوا بالبنادقة للاطلاع على ما يجرى فى بلادهم وما صاقبها من ناحية أخرى ، بل للاشتراك معهم فى تجارة آسيا . وكان اشتراكنا فى هذه التجارة على صورة تبعث على الأسى : لم نشترك فيها كتجار بل كمساهمين فى غنيمة ، لم يكن لنا تجار أو تجارة ، بل كان لنا سلطان يبتز أموال الناس ، وأعوان سلطان هم شر على الناس من البلاء . . فلم يبلغ ربحنا من هذه التجارة إلا شيئاً قليلا .

وليت هذا القليل دام مع ذلك ! ما زال سلاطين المماليك يعسفون التجار حتى زهدوهم فى المرور ببلادنا جملة ، ودفعوهم إلى البحث عن طريق آخر للوصول إلى الشرق غير طريق البحر الأبيض ، فكان ما كان من كشف طريق رأس الرجاء الصالح ووصول أوروبا إلى الهند مباشرة . أى أن سياسة أولئك المماليك الأسيويين انتهت بإلغاء وجود البحر الأبيض جملة ! لم يكتفوا بإلغاء وجود مصر كدولة بحرية ، بل حكموا بالخراب على

دول أخرى كانت تعيش فى هذا البحر ومنه، وهى الجمهوريات الإيطالية

وإذا جاز لنا أن نستنتج من ذلك شيئاً يتصل ببلدنا ، قلنا إنها ليست مفتاح عمران الشرق الأوسط فقط ، بل مقياس عمران البحر الأبيض كله . فإذا هى استسلمت للفتور أو الفوضى أو تخلت عن مكانها فى حوض هذا البحر ، تأثرت دوله جميعاً بذلك .

وماذا حدث بعد أن استغنى الناس عن البحر الأبيض كطريق للملاحة وأصبح بركة فسيحة راكدة المياه ؟

حصل أن سيطرت أوروبا على الهند وجنوبى آسيا كله دون أن ندرى. نعم إن المماليك حاولوا إنقاذ بقية ضئيلة من الأرض، فتعاونوا مع الجنويين فى حملة انتهت بكارثة عند جزيرة « ديو » . كانت محاولة ضعيفة مشئومة من أولها ، أشبه بهرولة المسافر فاته القطار . .

وماذا حدث بعد أن سيطرت أوروبا على الهند وجنوبى آسيا ؟

حدث أن أولئك الذين ملكوا زمام آسيا ، فكروا فى السيطرة على الطريق الطبيعى إليها ، طريق البحر الأبيض . وهنا جاء دورنا نحن ، وكان ما كان من وقوع بلادنا بين أيدى الفرنسيين أولا فالإنجليز ثانياً .

كل هذه المصائب المتتابعة نشأت عن إقفال باب البحر الأبيض . نشأت عن توجيه قوانا نحو ناحية واحدة وإهمالنا تلك النواحى التى ينبغى علينا ألا تغمض عيننا عنها أبداً . أهملنا ناحية البحر ، وتخلينا عن مكاننا فى

البحر الأبيض ، فاختل توازننا ، فكان هذا الانكسار المحزن فى تاريخنا . .

* * *

وخلاصة هذا الكلام كله أن البحر الأبيض هو « البعد الثالث » من أبعاد كياننا العام : الأول إفريقية ، والثانى الشرق الأوسط . ونحن لا نستطيع أن نتخلى عن مكاننا فى ذلك البحر إلا إذا أردنا أن نتخلى عن كياننا كله .

وإذا كنا قد وُلدنا إفريقيين فقد عشنا بحريين ..

وما دام الأمر كذلك ، فلنا فى هذا البحر رسالة هى التى يكتمل بها وجودنا ، ويستقيم كياننا وميزان حياتنا .

وسنفصل أمر ذلك فى الفصل الأخير من هذا الكتاب ، وبالله التوفيق .

مصر والشرق

ليس من قبيل المصادفات البحتة أن هاجر أم إسماعيل عليه السلام كانت – فيما يقال – مصرية ، فإن إسماعيل هو جد العدنانية ، وجد قريش ، فكأن لنا نسباً موصولا بهذه الذؤابة العربية التى جمعت أمجاد العرب كلها فى صعيد واحد .

وليس من قبيل المصادفات أن مارية القبطية زوج النبى صلى الله عليه وسلم مصرية ، وهى إحدى اثنتين من أمهات المؤمنين أنجبتا أطفالا : خديجة ومارية . ولم يكتب أحد تاريخ مارية إلى الآن ، ولم يكن من الممكن أن تصل إلى مكان يضارع مكان عائشة رضى الله عنها ، ولكن الرسول صلوات الله عليه اختصها بمكان لطيف ، وابتنى لها دويرة صغيرة فى طرف من أطراف المدينة . وقد ظلت هذه الدويرة قائمة حتى القرن الرابع الهجرى ، وزارها وأعجب بها الفيلسوف الأندلسى محمد بن مسرة ، وعندما عاد إلى الأندلس ابتنى لنفسه فى جبل قرطبة داراً على مثالها .

وهاتان الحقيقتان تقومان كالرمز على نوع صلاتنا بالعرب ، فهى صلة نسب قبل أن تكون صلة عقيدة ولغة وحضارة .

وإذا رجعنا إلى الوراء وجدنا هذه النوع من الصلات قائماً بيننا

وبين جيراننا فى الشرق ، ولست أقصد المصاهرات العادية ، بل أقصد العلاقات ذات الصدى الملحوظ فى مجالات السياسة والثقافة ومصائر الشعوب ، ومثال ذلك زواج أمنحتب الثالث من أميرة سورية ، يعزى إليها بعض الفضل فيما نادى به ابنها أخناتون من التوحيد والرمز إلى الخالق سبحانه بقرص الشمس « آتون » وهو أمر فريد فى بابه يذكره الذين يؤرخون للأديان ويعتبرونه ثورة فكرية كبرى لا تضارعها ثورة فكرية أخرى فى تاريخ العالم القديم .

ومن العلماء من يذهب إلى أن بعض أهل الدلتا يرجعون إلى أصول أسيوية ، دخلوا مصر عبر شبه جزيرة سيناء ، ويؤيد ابن خلدون ذلك ، فيذكر أن صحراء مصر الشرقية وشبه جزيرة سينا كانتا عامرتين بالضياغم ، وهم من عرب الشمال ، وذلك هو الطبيعى ، خاصة إذا ذكرنا أن تلك الصحراء لم تكن فى القديم قاحلة بالصورة التى نراها عليها اليوم ، وإنما كانت مخضرة فى كثير من أجزائها ، وكانت كثيرة الواحات والوديان ، وليس إلى الشك سبيل فى أنها كانت تصلح لمقام جماعات صغيرة من الناس بدليل أن طوائف كثيرة من رهبان مصر خلال القرون الثانى والثالث والرابع الميلادية قضت حياتها فى تلك الصحراء ، وقصة الأنبا بولا أول « السياح » أشهر من أن نذكرها هنا ، فقد قضى عمره كله فى هذه الصحراء متجولا ، وكان يقيم فى موضع غيضة صغيرة فيها نخل

وعين ماء ، وفى ذلك المكان لقيه القديس أنطونيوس المصرى منشئ الرهبانية العالمية .

ولقد عرفت مصر قبل الإسلام فرعى العرب الكبيرين ، عرفت عرب الجنوب القحطانية ، إذ أنهم كانوا يعبرون البحر الأحمر ويستقرون فى الوادى ويختلطون بالسكان ، لأنهم – كأهل مصر – أهل استقرار وزرع وضرع . وعرفت عرب الشمال العدنانية ، إذ كانوا يجوبون الصحارى الشرقية المصرية على ما ذكرناه ، وأولئك لم يختلطوا بالسكان كثيراً ، لأنهم أهل بداوة ورحلة وخيام ، وأولئك هم بدو الصحراء الشرقية الذين حاربهم الفراعنة على طول تاريخ مصر القديم .

وبعد الإسلام وفدت إلى مصر جماعات جديدة من العرب استقرت فى نواح شتى من مصر السفلى ومصر الوسطى ، وكان لها فى التاريخ المصرى أثر معروف .

وعندما تفككت وحدة الدولة الإسلامية خلال النصف الثانى من القرن الهجرى الثانى ، بدأت مصر تتحول إلى قاعدة إسلامية كبرى ، فقد ظهرت ميزاتها الخاصة وسط ذلك العالم الإسلامى الذى تهددته الأخطار : بدا بوضوح أن العراق لن يستطيع القيام بمطالب قيادة الجماعة الإسلامية ، بسبب قلة موارده من ناحية ، وبسبب وقوعه على حدود الشرق الأدنى فى مهب الرياح البشرية الأسيوية التى لم تكف

عن دفع موجات الهجرة والغزو نحوه . ثم إن القلب الحقيقى للدولة الإسلامية كان على ضفاف البحر الأبيض ، والمجال الطبيعى لدولة الإسلام كان حوض ذلك البحر ، ولقد كان من الخطأ الجسيم الانتقال بهذه الدولة إلى العراق ، لأن ذلك وجهها توجيهاً سياسياً ثقافياً غير سليم ، ولأن العراق كان يواجه الأخطار دائماً ، وهو لا يستطيع الثبات لها إلا بجهد كبير . ولقد استطاع خلفاء العباسيين الأول أن ينهضوا بذلك، فلما وهن أمرهم وقلت الموارد كان لابد من أن يعجزوا عن القبض على ناصية الأمور ، وكان لابد أن تتفرق الدولة ، وتصل إلى ما وصلت إليه .

بل إن طلائع ذلك التفرق ظهرت خلال السنوات العشر الأولى للخلافة العباسية ، فانفصل الأندلس . وينظر المؤرخون إلى هذا الانفصال على أنه مجرد استقلال « ولاية » من الولايات ، وهم ينسون أن هذه « الولاية » كانت الجناح الغربى لدولة الإسلام ، وأن سلامة الدولة الإسلامية كلها كانت متوقفة على بقاء هذا الجناح سليما ثابتاً ، وأن انفصال الأندلس لابد أن يتبعه انفصال أجزاء أخرى ، وهذا هو الذى حدث بالفعل : انفصل المغرب الأقصى وقامت فيه دولة صغيرة ضعيفة هى دولة الأدارسة ، ثم انفصلت تونس — وكانت تعرف إذ ذاك بإفريقية — على أيام هارون الرشيد ، وغلبت على ما عدا ذلك من بلاد المغرب الإسلامى كله جماعات من الخارجية أقامت هنا وهناك دولات لا كيان لها ولا شخصية ، ولم

يكتب لإحداها عمر طويل .

وكل ذلك نتيجة لمغادرة الدولة الإسلامية بلاد الشام ، أى ضفاف البحر الأبيض ، ولو أن الدولة ظلت هناك لتغير الأمر طبعاً ، ولما وقع فى الغرب الإسلامى ما وقع .

حقيقة أن العناية الإلهية تداركت الأندلس بعبد الرحمن الداخل الذى جدد مجد الدولة الأموية المشرقية فى المغرب ، وصان – هو وخلفاؤه من بعده – الإسلام الأندلسى من الضياع قروناً كثيرة، ولكن ذلك كان مجرد مصادفة ، مصادفة سعيدة لم تكن لأحد فى حسبان .ولكن الواقع الذى يؤيده البرهان أن انتقال مركز الدولة الإسلامية من الشام إلى العراق كان إيذاناً بدور جديد فى تاريخ الإسلام ، دور لن يعين الدولة على الاستمرار .

وكان لابد من مركز جديد تتجمع حوله البلاد الإسلامية ، مركز متوسط يضم شرق العالم الإسلامى إلى غربه كما كانت الشام تفعل أيام الأمويين ، مركز فى قلب منطقة البحر الأبيض ، يلتقى فيه تراث اليونان والرومان بجهود أمم الإسلام ، لتنمو شجرة الحضارة الإسلامية على أصولها الأولى ، مركز يكون كالقاعدة للعالم الإسلامى كله ، وكما تجمعت بقايا حضارة الإغريق فى مصر بعد غزوة الإسكندر . فأصبحت قاعدة الحضارة العالمية إذ ذاك على أيام البطالمة ، تجمعت قوى العالم الإسلامى

كلها فى مصر رويداً رويداً . بدأ ذلك وئيداً على أيام الطولونيين والإخشيديين ، ولم يتوقف سيره على أيام الفاطميين ، ثم أخذ صورة واضحة أيام الأيوبيين ، وأصبح حقيقة ماثلة للعيان أيام المماليك .

حدث ذلك كله فى تطور طبيعى متصل : فكلما اشتدت الأخطار على المشرق نزح العلم والعلماء غرباً فى التماس الأمان ، وكلما اضطربت الأمور فى العراق تراجعت مراكز القوة إلى الغرب ، لتستقر فى مصر ، وهذا هو السر فيما بدت به الدولة الطولونية فى أول أيامها ، فإن أحمد بن طولون لم ينشئ نظاماً ، ولم يبتكر شيئاً ، وكل عبقريته تتلخص فى أنه عرف كيف ينشر الأمان فى ربوع مصر ، فلما ساد الأمان بدأ الناس ينتقلون إلى مصر ، وتسربت معهم فى نفس الوقت ذخائر العلم والعرفان . وتوقف سير هذه العملية بعد انقضاء أيام الطولونيين ، ولكنه تجدد أيام محمد بن طغج الإخشيد ، واتصل على أيام الفاطميين ، حتى إذا وصلنا إلى العصر المملوكى وجدنا مصر هى القطر الإسلامى الوحيد القائم على قدميه ، والملجأ الوحيد الذى يستطيع أن يلجأ إليه صاحب العلم أو صاحب كنوز الكتب .

ولما وصلت مصر إلى هذا المركز عن ذلك الطريق الطبيعى المتصل الذى وصفناه ، كان لابد أن تعيد بناء ما تستطيع بناءه من بلاد الإسلام المجاورة لها : كانت بلاد الشام مهددة بالأخطار ، لأن نظام الحكم

العباسى اتجه إلى تجريدها من عناصر القوة ، إذ أنها كانت عاصمة خصومهم الأمويين ومصدر قوتهم ، فاشتد بعض ولاة الشام على أهلها وظلموهم ، حتى اضطر الإمام الأوزاعى للتصدى للدفاع عنهم وتنبيه الوالى إلى أنه خالف حدود الله . ثم إن الفقر حل بالبلاد بسبب حرمانها مما كان يأتيها بالخير أيام كانت قلب الدولة ، وعادت الخصومة بين المضريين – وهم عرب الشمال – واليمانيين ، واستشرى أمرها حتى أعيى ولاة بنى العباس ، ثم وقعت فتنة السفيانى فى أيام الخليفة الأمين ، وهى فتنة أشبه بفورة قومية ، إذ أن زعيمها نادى بالثورة على العباسيين ، وتعصب له اليمانيون أملا فى أن تعود الدولة أموية شامية كما كانت . وقد استمرت هذه الفتنة ثمان سنوات أصاب الشام خلالها بلاء كثير ، ثم قام أموى آخر بعد ذلك بنحو العامين ، ودعا لبنى أمية ، فتعصب له نفر من أهل الشام ، وكانت فتنة أخرى . ثم ثار فى البلاد نصر ابن شبث العقيلى ، وألقى بها فى أحضان هيج أموى جديد طال أمده واستشرى شره . وفى غمار هذه الفتن العمياء تمكن العباسيون من اجتذاب القيسية ناحيتهم ، بينما ظل اليمنية على الولاء لذكريات بنى أمية ، وتفرق أمر الناس فى ذلك البلد ، وساءت أموره وعمه الفقر أيام العباسيين . ولا يمثل لنا رأى العباسيين فى الشام إلا هذا الخبر الذى يرويه المؤرخون – والذى يظهر فيه أثر الوُضّاع – قالوا : « تعرض رجل

للمأمون بالشام مراراً ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشام ، كما نظرت لعجم أهل خراسان! فقال: أكثرت علىّ يا أخا أهل الشام . والله ما أنزلت قيساً من ظهور الخيل إلا وأرى أنه لم يبق من مالى درهم واحد ! وأما اليمن ، فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط . وأما قضاعة ، فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه ، فتكون من أشياعه . وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ! ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما ثائراً . اعزب ، فعل الله بك ! ! »

واستمر الأمر على ذلك فى هذا البلد الذى رزقه الله من الخير ما كان حرياً أن يجعله أسعد بلاد المملكة الإسلامية فى ذلك الحين ، ولكن ظروف السياسة والعصبية جعلت منه مهداً للفوضى والاضطراب ومسرح « فتن أهلية وعصبيات حمصية ولبنانية ودمشقية وفلسطينية ومعرية » على حد تعبير كرد على مؤرخ الشام .

وإنما أتيت فى هذه المسألة ببعض التفاصيل لكى أبين أنه فى الوقت الذى بدأت تقوم فى مصر خلاله الدول المستقلة واحتاج أصحابها للأمان على حدودهم ، بدت لهم هذه الجبهة الشامية مصدر قلق ومخاوف وبدا لهم بوضوح أنهم إذا أرادوا تأمين دولهم ، فلا مفر لهم من تأمين الشام كذلك والقضاء على أسباب الفتن فيه ، لأن الفتن إذا استمرت زادت طمع الطامعين فيه ، فإذا استقر فى الشام طامع أصبح الخطر أمام مصر ماثلا .

كان هذا بدء السياسة الشامية لدول مصر الإسلامية كلها ، فلم يكد أحمد بن طولون يستقر فى مصر ويثبت دعائم ملكه فيها حتى نظر إلى الشام ، وتجرد لضمه إلى دولته حتى يأمن الأخطار ، وتمكن من تحقيق ذلك دون مقاومة من أهل الشام ، ولم يعارضه إلا قائد تركى يسمى « سيما الطويل » ، تحصن فى أنطاكية ، غير أن ابن طولون لم يلبث أن قضى عليه .

ومن ذلك الحين ارتبطت مصائر الشام بمصائر مصر على طول العصور الوسطى ، فإذا نحن استثنينا بعض فترات القلاقل ، استطعنا أن نقول إن مصر والشام كانا بلداً واحداً طوال هذه العصور كلها ، فالدولتان الطولونية والإخشيدية كانتا مصريتين شاميتين فى آن معاً ، وكذلك الدولة الفاطمية معظم عصر سعودها ، أى إلى نهاية أيام الحاكم . ولقد انفرد الحمدانيون بحلب فترة من العصر الفاطمى ، ولكن أمرهم لم يطل ، وكذلك المرداسيون الذين خلفوهم . وعندما ضعف أمر الفاطميين تقلص ظلهم من شمال الشام ، ولكنه بقى فى جنوبه وهو فلسطين . وقد كان تقلص الحكم الفاطمى من الشام سبباً من الأسباب التى يسرت على الصليبيين غزوه على ما ذكرنا .

وتجدد الاتحاد بين البلدين عند قيام الدولة الأيوبية واتصل على

نسق واحد حتى الغزو العثمانى للبلدين خلال العقد الثانى من القرن السادس عشر الميلادى .

وخلال هذه الفترة الطويلة التى مررنا بها ، وهى نحو الخمسين وستمائة عام كانت الشام تابعة لمصر ، أو كانتا دولة واحدة تحكم من مصر ، وكان حكام مصر لا يدخرون وُسعاً فى رعاية شئون الشام ، والانفاق عليه عن سعة من موارد مصر ، ومن بلادنا استُخلصت الشام من أيدى الصليبيين ، وجيوش مصر هى التى ردت عن الشام بلاء المغول ، ومن مصر بإذن الله تتخلص فلسطين من إسرائيل .

ومن الطبيعى أن تكون حضارة البلدين خلال هذه العصور واحدة : على مصر وفد طلاب العلم من الشام ليدرسوا وليلتمسوا الرزق بعد ذلك . وأنت إذ تقرأ تاريخ هذه العصور تشعر وكأن الحدود بين البلدين قد تلاشت ، وأن الأرض قد اتصلت دون عائق من حلب إلى أسوان .

وشبيه بذلك ما وقع فى الحجاز ، جار مصر الأيمن عبر البحر ، فإن الأمويين اشتدوا على أهله على ما هو معروف ، فلم يكد عصرهم ينتهى حتى كان الفقر قد ضرب بجرانه على هذا البلد المقدس ، ثم جاء العباسيون فلم يفعلوا له شيئاً ، بل لم يلبثوا هم الآخرون أن ظلموا أهله بسبب لجوء نفر من الثائرين العلويين إليه واتخاذه مهداً لثوراتهم ، وأظهر مثال لذلك ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على

ابن أبى طالب الملقب « بالنفس الزكية » ، فقد امتنع عن البيعة للسفاح وأخيه أبى جعفر ، فبعث إليه هذا الأخير جيشاً تلو جيش ، ولا يصور نظرة العباسيين لأهل الحجاز فى ذلك الحين شىء مثل قول رباح بن عثمان بن حيان ابن عم مسلم بن عقبة المرى — صاحب وقعة الحرة أيام يزيد بن معاوية — يوم دخل المدينة سنة ١٤١ هجرية : « يا أهل المدينة ، أنا الأفعى بن الأفعى ! عثمان بن حيان ، وابن عم مسلم بن عقبة المبيد خضراءكم ، المفنى رجالكم ! والله لأدعنها بلقعاً لا ينبح فيها كلب ! » واستمرت الفتنة خمس سنوات قتل فيها محمد النفس الزكية ، وفسدت العلاقات بين العباسيين وأهل الحجاز ، فلم تصف بعد ذلك أبداً . فقد توالت الثورات والفتن والمظالم . إذ أن بنى العباس اعتبروا الحجاز وكر خصومهم العلويين فلم يزالوا يوالون الحملات عليه حتى قضوا على كثير من معالم العمران فيه .

ولم يكد أمر العباسيين يضعف ، حتى بدأ أهل الحجاز يفكرون فى الاستقلال عن الدولة العباسية جملة ، وقد سنحت لهم الفرصة أيام الخليفة المقتدر ، فقام رجل من بنى سليمان بن داوود بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، واستقل بأمر الحجاز ، وأقام فيه دولة السليمانيين فى أواخر القرن الثالث الهجرى . ولم يقدر لهذه الدولة من العمر إلا قليل ، لأن القرامطة هاجموا الحجاز من بلاد البحرين وقضوا

على دولة السليمانيين سنة ٣١٧ هجرية ، وأقاموا الخطبة لعبيد الله المهدى خليفة الفاطميين فى المغرب ! ولم يدم ذلك طويلا ، لأن موجة القرامطة لم تلبث أن انحسرت ، وعاد الأمر للعباسيين فى عهد الراضى بن المقتدر سنة ٣٢٧ هجرية .

كانت الدولة العباسية إذ ذاك فى حالة من الضعف بالغة ، ولم يكن لدى خلفائها أمل فى بعث دولتهم من جديد ، وأصبح كل همهم أن يحافظوا على سلطانهم فى العراق ، وأن يتخلصوا من سلطان الترك الذين غلبوا عليهم . وكان الحجاز بالنسبة لدولة ضعيفة كالدولة العباسية بلداً بعيداً ثقيل التكاليف ، ثم إن إصلاح أحواله يتطلب مالا ، ورعاية الحاج تتطلب عناية ونفقة .

فى ذلك الحين ، بدا لخلفاء بنى العباس أن الحل المعقول لمشكلة الحجاز هى أن يضموه إلى مصر ، ويعهدوا فى إدارة أموره إلى محمد ابن طغج الإخشيد الذى كان قد أقام دولته الإخشيدية فى مصر واستبد بها ، وأرغم العباسيين على محالفته والاعتماد عليه ، فأسندوا ولاية مكة والمدينة إليه ، وخُطب لصاحب مصر على منابر الحجاز مع الخليفة العباسى . وبذلك أصبحت الدولة المصرية تشمل مصر والشام والحجاز ، وارتسمت هذه الحدود السياسية التى تحدد جانبا من حدود مصر الحضارية ناحية الشرق .

من ذلك الحين يبدأ ارتباط مصائر مصر والحجاز ، وهو ارتباط دام طوال العصور الوسطى ، عدا فترات متقطعة انفصل الحجاز خلالها عن مصر .

ومن ذلك الحين أصبحت مصر تعتبر نفسها مسئولة عن الحرمين الشريفين وأهلهما ، واتسعت حدود مصر الشرقية فضمت الحجاز وأصبحت حماية الحرمين ضرورة لازمة لحكام مصر ، استمرت حتّى خلال العصر العثمانى ، فكانت مصر هى المسئولة عن مهبط الوحى ، وكان عاملها مكلفاً بأن يعنى بأمر الحاج ويقوم على المسجد الحرام ومسجد المدينة ومزارات المسلمين .

ومن لطائف مصادفات التاريخ أن البيت العتيق بناه إبراهيم وإسماعيل ابن هاجر المصرية ، ثم جدد بناؤه على عهد الرسول صلوات الله عليه ، وعنى به بعض خلفاء العباسيين بعض العناية ، ثم قامت عليه مصر بعد ذلك ، فبنته على أيام الظاهر بيبرس ، وأنفقت عليه مالا جليلا ، بل قام سلطان مصر بيبرس يبنى بيديه مع البنائين ، ثم تصدع بنيانه أيام الأتراك العثمانيين ، فقام المصريون على بنائه ، وأرسل والى مصر كل ما يلزم لهذا البناء ، وبعث بالبنائين ، ثم أعيد بناؤه على أيدى المصريين أيام محمد على ، حتّى هذه المرة الأخيرة التى تقوم المملكة السعودية فيها ببناء ذلك البيت الأكرم ، سيقوم البناء على تصميم مصرى وُضع

فى القاهرة وينفذ فى الحجاز على أيدى مهندسين مصريين .

ولم تقف حدود مصر السياسية فى جزيرة العرب عند الحجاز ، وأنا لا أتحدث عن هذه الحدود السياسية الآن لذاتها ، فهى بنفسها لا تعنى شيئاً ، وإنما المهم عندى أنها ترسم لنا خطوطاً ولو تقريبية للحدود الحضارية ، وهى لباب التاريخ ولُحمة النسب بين الأمم .

لقد وصلت هذه الحدود إلى بلاد البحرين ، وقد بدأ ذلك أيام الفاطميين وقبل أن ينتقلوا بدولتهم إلى مصر ، فقد أطاعهم القرامطة ، واستأذنوهم فى بعض ما أهمهم من أمور دولتهم ، ومثال ذلك أن أبا طاهر القرمطى لما توفى سنة ٣٣٢ هـ . اختلف القرامطة فيمن يولونه أمرهم ، وكتبوا إلى الخليفة الفاطمى « القائم » يسألونه ، فأشار بتولية ابنه أحمد ، فكان ما أشار به . وبعد ذلك بسنوات طلب الخليفة الفاطمى المنصور إلى أحمد بن أبى طاهر أن يعيد الحجر الأسود إلى مكانه ، فأطاع وأعاده ، وبذلك انتهى أمر هذه الفعلة الشنعاء الوحيدة من نوعها فى التاريخ : سرقة الحجر الأسود من الكعبة على يد القرامطة ، انتهت وعاد الحجر إلى مكانه بفضل تدخل الخليفة الفاطمى ، وبفضل نفوذه فى البحرين . فإذا ذكرنا إلى جانب ذلك أن الخليفة العباسى المعتضد بذل أقصى ما استطاع من الجهد لاسترداد هذا الحجر دون جدوى ، بل عرض على القرامطة خمسين ألفاً من الدنانير فى مقابل رده فرفضوا ، لتبينا أن سلطان الخليفة الفاطمى —

ـعلى بعد بلاده ـ كان أقوى من سلطان الخليفة العباسى على بلد قريب منه كالبحرين . نعم إن العلاقات ساءت بين الفاطميين وقرامطة البحرين بعد ذلك ، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية الحقيقة التى ذكرناها .

بل وصلت الدعوة الفاطمية من مصر إلى عمان ، وخرج من القاهرة دعاة ينشرون مذهب البيت العبيدى : حدث ذلك أيام الخليفة المستنصر ـ سنة ٤٦٩هـ . على وجه التحديد ـ عند ما بعث المستنصر إلى المكرم بن على بن محمد الصليحى صاحب اليمن يأمره بتولى شئون ولاية عمان ، وكان الاضطراب قد سادها بعد ذهاب ريح القرامطة . وأقامت الدولة الفاطمية داعياً رسمياً لها فى عمان يسمى إسماعيل بن إبراهيم بن جابر ، ومن عمان أرسل الفاطميون أحد دعاتهم إلى الهند! وإذا كانت الدعوة الفاطمية هى الصورة التى أخذتها الثقافة المصرية الرسمية فى ذلك الحين ، فمعنى ذلك أن حدودنا الثقافية وصلت إلى الخليج الفارسى ، وأن وطننا المصرى كان فى العصور الوسطى فعلا مركز إشعاع ثقافى بعيد المدى شرقا وغرباً وجنوباً.

وسيتجدد ذلك الإشعاع الثقافى المصرى المشرقى فى العصر الحديث عندما تصل حاميات مصرية إلى الخليج الفارسى ، وتعلن سلطان مصر هناك.

فكأننا لا نفعل اليوم جديداً إذ نبعث بأبنائنا من المعلمين ليقوموا بالتعليم فى البحرين وعمان ، وكأن هذه رسالة حقيقية لمصر ، قامت بها فى العصور الوسطى ، وتواصلها فى العصر الحديث .

ولنذكر أن اليمن دخلت فى نطاق نفوذ مصر السياسى فى العصر الفاطمى أيضاً . ذلك أن الدولة الزيادية التى قامت فى اليمن خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ضعف أمرها ، وانقسمت إلى دويلات فى آخر ذلك القرن ، فانتهز دعاة الفاطميين الفرصة ، وما زالوا يوالون إرسال الدعاة حتى تمكن أمر المذهب الفاطمى فى اليمن ، وفى سنة ٣٧٩ ﻫ . دخل فى هذه الدعوة رسمياً عبد الله بن قحطان بن أبى يعفر أمير اليمن ، وخطب للخليفة الفاطمى على منابر اليمن سنة ٣٨٧ ﻫ ، وقد ظهر ذلك النفوذ المصرى بصورة واضحة جداً أيام الدولة الصليحية التى أنشأها على ابن محمد الصليحى نائبا عن الخليفة المصرى فى حكم اليمن .

ومن طريف ما يروى أن المكرم أحمد الصليحى عند ما توفى بعثت زوجه المعروفة فى التاريخ باسم السيدة الحرة إلى المستنصر تسأله أن يوافق على إقامة ابنها مكانه ، فأقرها المستنصر على ما طلبت ، واعتبرها وصيته على ابنها وقائمة بالدعوة الفاطمية وشئون الحكم المصرى فى اليمن ، وأطاعها آل الصليحى ومنافسوهم آل الزواحى ، مما يدل على أنها كانت شخصية قوية مطاعة مرهوبة الجانب ، وكانت المكاتبات المصرية تخاطبها بألقاب فريدة فى بابها ، وكانت تقول : « . . . أمير المؤمنين يرد السلام على الحرة الملكة السيدة الرصينة الزكية ، وحيدة الزمن ، سيدة ملوك اليمن ، عمدة الإسلام ، ذخيرة الدين ، عصمة المسترشدين ، كهف

المستنجدين ، ولية أمير المؤمنين ، وكافلة أوليائه الميامين ! » ومضت هذه السيدة المناضلة تكافح من حولها من أمراء اليمن ، وتبعث الرسل يحملون الدعوة الفاطمية إلى كل نواحى بلاد العرب ، بل أرسلت الدعاة إلى الهند ، حتى توفيت سنة ٥٣٢ هـ . فأخذ سلطان مصر السياسى هناك يضعف ، ولكنه لم يتلاش نهائياً إلا حوالى سنة ٥٧٠ هـ .

وقد اتصل نفوذ مصر فى الشام والحجاز على أيام المماليك ، بل بسط الظاهر بيبرس وخلفاؤه سلطانهم على أرمينية وملكوا بلاد الأرمن ، وتولى المماليك البرجية حماية الإمارات الواقعة شمال الموصل والشام ، وبعض إمارات آسيا الصغرى ، واستمر ذلك حتى العصر العثمانى .

* * *

وقد وقفت طويلا عند هذه الناحية ، لأن الشائع المعروف هو أن النتيجة الأولى للفتح العربى هى سيادة بلاد العرب على مصر ، والواقع خلاف ذلك . فقد سيطرت الخلافات الشرقية ، ما بين راشدة وأموية وعباسية ، على مصر قرنين ونصفاً فحسب ، ومنذ أن قامت الدولة الطولونية سنة ٢٥٤ هجرية بدأت مصر تمتد شرقاً فى ظلال الإسلام ، ومدت حدودها فى معظم تاريخها خلال العصور الوسطى إلى الفرات ، بل أقيمت الخطبة باسم خليفة مصر فى بغداد يوما ما ! وتولت مصر رعاية الأراضى المقدسة ، وأدخلت الحجاز فى بلادها ، ومدت سلطانها على اليمن

والبحرين وعمان فترة طويلة أو قصيرة .

وهذه الامتدادات الشرقية المصرية لم تكن سياسية فحسب ، بل كانت ثقافية أيضاً ، لأن مصر كانت قد تحولت إلى قاعدة الثقافة العربية والعلم الإسلامى ، فكانت تنشر علمها فى كل ناحية وصلت إليها ، وهى قد أزالت الحدود السياسية بينها وبين الشام والحجاز واليمن ، فأصبح أهل العلم من أهل البلاد يفدون إلى مصر ليتعلموا أو ليعلموا . وكلما تقدم الزمن وتزايدت الأخطار على البلاد المشرقية : العراق والشام وجزيرة العرب تحولت مصر إلى ملجأ للعلم الإسلامى كله ، وفر أصحاب الكتب بكتبهم إلى بلادنا ، فلا غرابة والحالة هذه أنك تجد ما يزيد على نصف المخطوطات العربية فى مصر وحدها ، والباقى موزع على بقية بلاد العالم الإسلامى شرقاً وغرباً . ومصر لم تحصل على ذخائر الإسلام هذه بناء على سياسة خاصة رسمها حكامها ، ولا تنفيذاً لخطة بعيدة المدى ، كهذه الخطط التى ترسمها الدول أو الجماعات ، وإنما جمع المصريون ذلك كله مدفوعين بإحساس عميق خامر نفوسهم ، وهو أنهم قَوَمة على هذه الثقافة الإسلامية كلها ، وأن الحفاظ على تلك الكنوز إنما هو جزء من رسالة بلدهم الخالدة . وكما حافظت مصر عل تراث الحضارة المصرية القديمة آلاف السنين فى الأعصر الموغلة فى القدم ، حافظت على تراث الحضارة الإغريقية فى حرص بالغ ، فقد كانت أضواء حضارة الإغريق تخبو فى

أثينا وإسبرطة وكورينثة ولكنها كانت تتألق فى الإسكندرية . وحدث مثل ذلك بالنسبة للحضارة المسيحية : تصدى رجالنا للنضال عنها ، وحافظنا عليها صافية سليمة من الأوشاب ، وتابعنا رسالتنا الخالدة فى ظلال الإسلام ، فحافظنا على تراثه ورعينا كنوزه منذ أكرمنا الله بدعوة الإسلام إلى اليوم .

وإذا كانت حضارات المصريين والإغريق والمسيحيين الأول والإسلام هى جماع الحضارة العالمية ، فمعنى ذلك أن مصر كانت طوال تاريخها راعية الحضارة وحارسة تراث البشر . وهذا الذى حدث فى الماضى يرسم لنا خطوط رسالتنا فى حاضرنا ومستقبلنا بإذن الله .

ولعل أغرب مصداق لذلك أن كل المخطوطات العربية التى توجد اليوم فى مكاتب أوروبا وأمريكا ، قد اشتريت خارج مصر ، وأن تجار المخطوطات وبعثات جمعها لم يشتروا من مصر إلا قليلا جداً ، وأمامك مقدمات فهارس المخطوطات فى مكتبات أوروبا وأمريكا ، تستطيع أن تتبين منها أن المصريين لم يبيعوا شيئاً من تراث العرب بمال ، وليس المصريون أغنى من غيرهم ممن باعوا المخطوطات العربية بالألوف ، ولكن المصرى يشعر فى قرارة نفسه أنه أمين على هذا التراث العربى ، وهو قد يعوزه المال وتقسو عليه الأيام ، فيبيع أثاث بيته ، ولكنه لا يبيع مخطوطاً !

وشىء آخر تستطيع أن تتخذه برهاناً يؤيد ما ذكرت ، هو أن فوق

التسعين فى المائة من الكتب العربية المطبوعة طبع فى مصر ، والعشرة فى المائة الباقية طبعت فى بقية العالم الإسلامى كلها ، هذا مع أن المصرى لم يشتهر بالمهارة فى تجارة الكتب ، وإذا كان هناك من يكسبون من نشر الكتب العربية فإن المصرى دون شك آخرهم ! فإذا كان المصرى قد قام على طبع هذه الكتب ونشرها ، فإنما دفعه إلى ذلك إحساس قلبى بأنه يؤدى رسالة قومية ، رسالة مصر فى الوجود .

* * *

وفى العصر الحديث عادت مصر فاسترجعت حدودها الثقافية كما كانت عليها قبل الغزو العثمانى ، وقد مهدت لذلك باستعادة مركزها السياسى فى الشام وبلاد العرب ، وكلنا نعرف الحروب التى خاضتها جيوش مصر أيام محمد على لفتح الشام ، والحروب القاسية التى خاضتها جيوشنا فى بلاد العرب ، والتضحيات التى تجشمناها حتى بسطنا سلطاننا على البحرين وعمان لفترة قصيرة جداً من الزمن . كلنا يعرف ذلك ويدرك أثره فى رد بلاد الشام مثلا إلى العروبة الكاملة من جديد ، فقد كان الأتراك العثمانيون قد كادوا يقضون على مراكز العلم والنور فى الشام ، وفى أواخر القرن الثامن عشر كان الشام قد وصل إلى درك سحيق بسبب سوء الحكم التركى ، فلما دخله المصريون وانتزعوه من أيدى الأتراك تنفس العلم فيه من جديد ، وبدأت النهضة السياسية الاجتماعية فى تاريخه ،

فكأن نهوض مصر فى أوائل القرن الماضى كان نهوضاً للعرب أجمعين .
وهذه فى ذاتها حقيقة أرجو ألا تخفى على أحد ممن يدرسون تاريخنا أو تاريخ العالم الإسلامى أو تاريخ الشرق الأوسط على الأقل : هنا القلب ، وهنا المركز ، وهنا كنز المعارف ومطلع النور .

وخلال القرن التاسع عشر كله قامت مصر بهذا الدور وحملت عبء النهضة العربية : هنا بدأت حركة الترجمة والانتعاش ، ومن هنا سار موكب العرفان . ولقد اشتركت مصر ولبنان فى هذا البعث العربى الجديد ، وقام لبنان بالبحث والدرس وأطلع أعلاماً لا تنسى العروبة فضلهم ، ولكن مصر قامت بالنصيب الأكبر والقدر الأوفى ، ولو أنك اطلعت على عدد الكتب التى طبعت فى مطبعة بولاق خلال القرن الماضى لأدركتك الدهشة من أن المصريين يستطيعون أن يخرجوا هذا الحشد الهائل من الكتب فى كل علم وفن ، على الرغم من ظروف غير مواتية وراتب لا يكاد يغنى . ولقد قام أولئك الأبطال المجاهدون بذلك العمل المجيد فى صبر وإنكار للذات يبعثان على الإجلال ، فقد كان رفاعة رافع الطهطاوى وتلاميذه يترجمون الكتاب بعد الكتاب ، ويدفعون إلى المطبعة بالسفر بعد السفر فى تواضع غريب . ولو قرأت المقدمات المتواضعة التى كانوا يجعلونها بين يدى كتبهم لتبينت بوضوح أن أولئك الرجال كانوا يشعرون شعوراً واعياً بأنهم يؤدون نصيبهم من رسالة مصر الخالدة .

وقد اتسعت حدود الشرق فى العصر الحديث ، فتقاربت بلاد كان الناس لا يتسامعون بها إلا فى الأخبار ، فأصبحت الهند وباكستان وإندونيسيا على ساعات من القاهرة ، ونهضت هذه الأمم كلها ووعت شعوبها ، وأخذ بعضها يتصل بمصر ، فاتسعت حدود رسالة مصر فى الشرق ووصلت إلى إندونيسيا ، بل الفيلبيين ، ولم يظهر ذلك بشكل واضح إلا فى عهد الاستقلال بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وهذا يصل بنا إلى رسالة مصر اليوم ورسالتها غداً ، وهو موضوع الفصل التالى من هذا الكتاب .

رسالة مصر : نور وسلام

رسمت لك فى الفصول السابقة حدود الحضارة المصرية ، وتتبعت وإياك اتجاهات نشاطها فى ميدان العلم والفن ، وبينت لك أبعاد التاريخ المصرى ، وكيف أن صورة هذا التاريخ لا تكتمل ومقوماته لا تتم إلا إذا قام على هذه الأبعاد الثلاثة ، وجمع بين العناصر الإفريقية والبحرية والمشرقية التى تتألف منها حضارة مصر على العصور .

وقد حرصت خلال هذه الصفحات أن أبين عنصر الاستمرار فى هذه الحضارة المصرية ، وأن أدلل لك على أن رسالة مصر لم تختلف على طول الزمان وإن اختلفت الأعصر وتعاقبت الأزمان وتغيرت الأدهار . فهى فى كل زمان مستقر الحضارة وحصنها ومبعثها ، وأهلها فى كل عصر قومة على تراث الإنسانية، أمناء على جانب كبير مما أبدع البشر فى ميادين العمران .

ولعل بلداً من بلاد الأرض لا تصدق على حضارته صفة الاستمرار كما تصدق على مصر ، فإن مصر التى ولدت من نحو خمسة آلاف سنة لا زالت هى بعينها اليوم : لم يتغير فيها الدين على طول هذه الأحقاب إلا مرتين ، ولم تتغير اللغة إلا مرتين أيضاً، على حين أن بريطانيا مثلا

لا يرجع تاريخها إلى أبعد من ألفى سنة تغير الدين خلالها مرتين واللغة أربع مرات على الأقل ، وإسبانيا يرجع تاريخها إلى ألفين وخمسمائة سنة تغير الدين خلالها ثمان مرات واللغة ست مرات . أما جنسنا فلم يتغير فى جملته خلال هذه الأعصر إلا تغيرات طفيفة ، فى حين أن بلداً كإيطاليا تعاقبت عليه أجناس كثيرة غيرت عنصر السكان تغييراً تاماً أكثر من مرة . ونتيجة ذلك أن طبيعة الحياة فى مصر وجوهرها لم يختلفا كثيراً رغم هذه الأحقاب المتطاولة ، بل إن العين تقع اليوم على مشاهد كانت موجودة كما هى اليوم أيام الفراعنة . فلو أنك مررت بأحد هذه المحال التى يبيعون فيها آنية الفخار ، ورأيت تلك المجموعات اللطيفة من القلل والأباريق والأزيار وأصص الزرع والأنابيب الضخمة ، مرصوصة بعضها فوق بعض على نحو يستلفت النظر ، ووراء هذه الصفوف المتراصة من الآنية يعيش صاحب الدكان وأهله ، إذا رأيت هذا المنظر فثق أن عمره لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة ، وأنه كان مألوفاً لأجدادك الأقدمين كما هو مألوف لك . أما ريفنا اليوم فالأغلب أنه ريف مصر القديمة .

ولقد تعودنا أن نقسم تاريخنا إلى أقسام ثلاثة ضخمة يختلف بعضها عن بعض أظهر الاختلاف : هناك مصر القديمة ومصر الإسلامية ومصر الحديثة . والحقيقة أن هذا التقسيم لا يطابق الواقع ، وقد آن أن

نغيره ، لأننا مثلا نذهب إلى أن تاريخ مصر الإسلامية ينتهى عند نزول الفرنسيين مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، بل إن بعض المؤرخين يقفون بمصر الإسلامية عند الغزو العثمانى عام ١٥١٧ ، ثم تبدأ فى حسابهم مصر الحديثة ، فكأن مصر بعد نزول الفرنسيين لم تعد إسلامية ! وهذا غير صحيح ، لأن مصر لازالت – ولن تزال – إسلامية ، ولأن تاريخنا لم ينتقل من الأعصر القديمة إلى الأعصر الإسلامية مباشرة ، بل هناك فترة طويلة تعرف بعصر المسيحية ، وهى فترة هامة من تاريخنا ، وحلقة لا يمكن إهمال أمرها فى سلسلة تاريخنا الطويل .

والواقع أننا لا يمكن أن نعتسف تقسيم تاريخ مصر ، لأن تاريخ مصر متصل أشد الاتصال بالتاريخ العالمى ، ولابد أن نتبع فى تقسيمه تقسيم التاريخ العام . فنحن أمة صنعت التاريخ أو عاشت فيه عمرها كله ، وهى لم تكن أبداً نسياً منسياً أو كما مهملا فى حساب الأحداث . ولم تمر بها ، كما مرت بغيرها ، فترات تبدو أثناءها وكأنها قد أنسيت التاريخ أو أنسى هو ذكرها . وذلك راجع إلى طبيعة موقعنا الجغرافى ، والتبعات التى يلقيها على أكتافنا هذا الموقع .

وقد رأيت فى الفصول الثلاثة السابقة كيف أن مصر كانت خلال هذه الأعصر المتطاولة إما صانعة الحضارة البشرية أو حفيظة عليها ،

ورأيت فى كلامنا عن مصر وإفريقية كيف قام بلدنا — دون أن تكون له سياسة مرسومة — بأهم دور فى تاريخ هذه القارة ، وكيف أن النور كان ينفذ إلى نواحيها من بلادنا بينما هى فى حساب الدنيا كلها قارة مظلمة . ورأيت أن إشعاعات حضارتنا اخترقت الحجب ووصلت إلى أقاصى القارة ونحن لا ندرى . واليوم يحدث مثل ذلك ، فى طول هذه القارة وعرضها ، وفى هذه اللحظة التى تقرأ فيها هذا الكلام، يصغى الألوف من مواطنينا الإفريقيين إلى الإذاعة المصرية ، وتقرأ ألوف أخرى من المحيط الأطلسى إلى عدن نفس المجلات التى قرأتها أنت ، وثق أنه ليس فى هذه القارة إنسان إلا يداعب خياله حلم المجىء إلى القاهرة .

ورأيت فى الكلام على علاقتنا بالبحر الأبيض وحضارته أننا وضعنا أساسها وطباقها الأولى ، وساهمنا فيها برافدين كبيرين ، وأننا لم نفقد مكاننا الطبيعى فى هذا البحر إلا مرة واحدة ، هى التى جرت علينا مصيبة الاستعمار ، وفيما خلا ذلك لم يخل مكاننا فى عالم هذا البحر الأبيض ، حتى فى العصور التى يخيل إلينا أنها عصور هبوط ، كعصر الحكم الرومانى ، فقد كانت مصر خلال نصفه الأول أعظم بلاده فى ميدان الطب ، وكان أباطرة الرومان إذا أعياهم الداء بعثوا فى طلب طبيب مصرى ، وفى نصفه الثانى تألق نجم مصر المسيحية ، وقادت

عالم النصرانية كله فى كفاح المذاهب ، بل ظل بلدنا محتفظاً بعبقرية البناء والإنشاء ، فلما احتاج جستنيان مهندساً يصمم له كنيسة أياصوفيا ، لم يجد غير مهندسين إسكندريين هما اللذان وضعاً « المشروع » كما يقولون ، وإذا كانت الإمبراطورة تيودورا هى أعظم شخصية فى التاريخ البيزنطى ، فإن نصيب مصر فى هذه العبقرية عظيم ، لأنها قضت أحسن سنوات شبابها فى بلادنا ، وأخذت عن أحبارنا وعاشت عمرها كله بعد ذلك شديدة الحب لبلدنا .

ورأيت فى الكلام على الشرق أن حدود حضارتنا ترامت إلى أبعدما يطمح إليه الخيال ، وأن هذه الحدود قد وصلت إلى الخليج الفارسى والفرات .

وهذه الحقائق كلها هى التى تحدد لنا رسالتنا الحقيقية فى هذا الوجود . وأنا لم أحاول أن أتخير الأمجاد وأجمعها ثم أقول : هذه هى رسالة مصر ! إنما رأيت أن أسرى بك خلال تاريخنا الطويل لنتعرف اتجاهاته وأبعاده وأعماقه ، وعلى ضوء هذه الاتجاهات وفى حدود تلك الأبعاد والأعماق نرسم رسالتنا فى الحاضر والمستقبل . وهذا الذى فعلناه شبيه بما يفعله الوالد إذا أراد أن يوجه ابنه التوجيه الصحيح ، فهو يلاحظه ليستبين ميوله ويتحدث إليه ليستطلع نزعات نفسه ، وهذه وتلك تحددان الطريق الذى سيسلكه ، أو الذى ينبغى أن يسلكه فى الحياة .

وإذا جاز لنا أن نصدر حكماً على هذا التاريخ فى مجموعه ، فهو أن مصر بلد له رسالة معينة فى الوجود ، تتلخص فى كلمتين اثنتين : النور والسلام . فأما رسالة النور فقد رأيت مصاديقها بما فيه الكفاية فى أطواء هذا الحديث ، وأما رسالة السلام فسنتحدث عنها بعد قليل ، ولكن يكفى أن أقول لك سلفاً أن أبسط براهينها هى أن ديانات مصر القديمة ديانات محبة وسلام ، وليس فى آلهة مصر القديمة آلهة تكره البشر وتغار منهم وتحقد عليهم كما كان الحال مع أرباب الإغريق والرومان والجرمان ، ثم تركنا هذه الأرباب عندما ظهرت المسيحية تدعو إلى المحبة والإخاء ، ثم تركناها إلى الإسلام وهو دين السلام . ولم يقهرنا أحدٌ على اعتناق المسيحية أو الإسلام ، وإنما اعتنقنا هما مختارين ، بل إننا لاقينا فى سبيل المسيحية الأهوال وغنم الكثير من أجدادنا الشهادة فى سبيلها ، حتى ليذكر تاريخنا فترة تسمى « عصر الشهداء » . وكذلك الإسلام لم يقسرنا عليه أحد ، فإن الإسلام دين السلام ، لم ينتشر بالسيف أبداً ، وإنما فتحت البلاد وترك أحرارها ليختاروا الطريق الذى يحبون .

ولعل سائلا يسأل عن المراد بالبلد الذى له رسالة ، فنقول إن الأمم كالناس ، فكما أن فى الناس مَن لهم مواهب ظاهرة وظروف خاصة تفرض عليهم التزامات لابد أن يقوموا بها حيال الآخرين ،

كصاحب الموهبة الفنية ، الذى تطالبه هذه الموهبة بأن يقوم بحقها ، فيقضى عمره كله خادماً لها ، فكذلك الحال مع الأمم : فيها ما يفرض عليه موقعه الجغرافى وما حباه الله به من نعم التزامات معينة حيال الإنسانية كلها ، وفيها ما تنحصر مهمة أهله فى الاستمتاع بالحياة عن أى طريق ، والأمم كثيرة أمامك تستطيع أن تجد فيها هذه وتلك .

وإذا نحن تأملنا تاريخ البشر لاحظنا أنه ليس تاريخ الأمم كلها ، ليس تاريخ هذه المئات من الشعوب والجماعات التى باد بعضها وظل بعضها الآخر قيد الوجود ، وإنما هو تاريخ عدد صغير منها ، وهذا العدد الصغير هو الذى رسم ذلك الخط الطويل الذى بدأ يوم درج الإنسان على ظهر هذا الكوكب ، ولن يزال متصلا إلى أن يشاء علام الغيوب . أمم قليلة هى التى قادت وعلمت ووجهت ، أما البقية فقد سارت فى الركب راضية أو غير راضية . ولسنا نعنى بذلك تلك الأمم التى حكمت وسادت ، بل التى أيقظت وعلمت وأنارت ، وجعلت للتاريخ الإنسانى معنى ومغزى ومثلا أعلى . لأن السيادة والحكم — مهما اتسع وعظم شأنهما — فمصيرهما إلى الزوال ، أما الذى يبقى وينفع الناس فوجوه الحضارة وأعمال العمران التى تنتقل من الأمة إلى ما عداها ، وتتوارثها الأجيال عن الأجيال . ولقد عرف التاريخ أمما بلغت من السيادة واتساع السلطان ما لم يبلغه غيرها ، كدولة المغول التى امتدت

من قلب الصين إلى فرنسا ، وتلاشت مع ذلك فى بضع سنوات كأن لم تغن بالأمس ، ولم تخلف بعدها غير الخراب والدمار . وعرف التاريخ كذلك أمما صغيرة لم تحارب أحداً ، ولكنها خدمتْ وعلّمت كأمة الفينيقيين التى نقلت الكتابة من مصر القديمة إلى بقية الأمم ، وعلمت الكثير من أمم الأرض شتى الصناعات ، وأنشأت فى كل مكان نزلت فيه مدناً لا زال بعضها عامراً إلى اليوم .

وشىء آخر أحب أن ألاحظه فى هذا المقام ، وهو أن فى الأمم — كما فى الناس — أمما عاشت لنفسها ، لم تعط أحداً شيئاً ، بل أخذت عن غيرها كل شىء ، وهذه الأمم لا حساب لها فى حضارة أو نظام ، وإنما هى عالة على غيرها . وليس من الضرورى أن تكون هذه الأمم صغيرة أو فقيرة ، لأن الأمر متوقف على طبيعة الأمة ومزاجها ، ففى الأمم ما هو ضخم غنى ، وما بسط سلطانه على غيره وكان له ملك شاسع ، ولكنه فى مقياس الحضارات فقير صغير ، لم يسجل له التاريخ شيئاً ولا الناس يذكرونه بشىء محمود .

وليس من الضرورى كذلك أن يكون هذا الذى تخلفه الأمم لغيرها آراء ومبادئ وفلسفات ، بل قد يكون كل جهدها منصرفاً إلى ما تعودنا أن نذكره فى ازدراء لا معنى له من شئون المادة . ولقد عوّدنا أسلافنا أن نحسب أن كل شىء لا قيمة له عدا شعر الشاعر ووصف الناثر وحكم الحكماء

التى تشبه كلام الكهان ، ودرجنا منذ أمد على ألا نقدر الصانع المجيد إلا بمقدار ، وعلى أن نضعه مهما أجاد فى مرتبة هى أقل من مرتبة أبسط الشعراء والناثرين ، وهذا كله ليس بصواب فى فهم التاريخ أو إدراك طبائع العمران ، لأن الحقيقة هى أن الرقى المادى هو أساس أى رقى روحى أو فكرى ، وأنك إذا هيأت للناس ظروفاً معاشية طيبة فقد هيأت لهم طريقاً إلى الفضائل ، وأن الأسئلة الأولى التى ينبغى أن تضعها لنفسك ، إذا أردت أن تدرس حالة شعب ، هى : كيف كان الناس يعيشون ؟ ماذا كانوا يأكلون ، وكيف كانوا يأكلونه ؟ وأى صنف من البيوت بيوتهم ؟ وأى نوع من النسيج كان نسيجهم ؟ وما إلى ذلك ، لأن جواب هذه الأسئلة يحدد فى الواقع مستوى معيشة الناس ، ومستوى المعيشة يحدد مستوى التفكير فى الغالب . وأنا هنا أتحدث عن الأمم والجماعات ، لا عن الأفراد ، لأننا درجنا على أن نعتبر الامم والجماعات شخوصاً وأفراداً وأجساماً ، وهذا خطأ بين يحذره العارفون بخصائص الجماعات .

وقد عنيت بأن أذكر هذه الملاحظات حتى يجىء حكمنا آخر الأمر سليما ، وحتى لا يفوتنا شىء دون أن نضعه فى حيث يستحق من التقدير والحساب .

* * *

إذا كانت مصر قد عاشت فى مجالات الحضارة دائماً ، ولم يخل زمان منها قائدةً للعمران أو حفيظة على تراثه ، فإن هذا يضع أيدينا على نوع رسالتنا ، فنحن أمة علم وعمران ، وإذا كنا قد أهملنا شيئاً من رسالتنا هذه فى بعض فترات الانهيار البالغ ، فينبغى ألا يفوتنا ذلك من الآن فصاعداً ، وقد صحونا والحمد لله ووعينا .

علينا أن نبلغ ما بلغه غيرنا فى ذلك الميدان ، ونعول على المضى فى الدرس حتى نستعيد مكان القيادة ، أو حتى نأخذ مكاننا فى الصف الأول . وقد يحسب الناس أننا نبالغ إذ نحمل قومنا هذه الرسالة ، لأن غيرنا قد سبقنا فى تلك الميادين بمراحل كثيرة . والواقع أن تلك المراحل تقطع فى زمن يسير إذا عقدت الأمة العزم على ذلك ، وإذا دعا أهلها للرسالة الحقة للبلد الذى يعيشون فيه .

ذلك أنك تستطيع أن تدرس العلم لتكسب به العيش ، وتستطيع أن تتعلمه ليعينك على السمو بنفسك والارتفاع بمستواها ، وتستطيع أن تدرسه لتنفع الناس به ، وهذه القدرة على النفع هى فى ذاتها سيادة ، بل هى أرفع ألوان السيادات . وإذا لم يكن الرجل الذى اخترع عقاراً ناجعاً ينجى الناس من المهالك سيداً ، فأى الناس هو السيد ؟ وإنما المهم فى ذلك كله نظرتك إلى العلم وعلاقتك به ، فإذا أنت نظرت إليه على أنه مجرد كسب فحسب ، وإذا كانت علاقتك به علاقة

مال فويل لك وويل له ! وعشت حياتك عبداً أسيراً للمكاسب والمغانم .
فكم من طبيب أودع الله فى قلبه ويده الشفاء ، فيأبى إلا أن يجعل من نفسه محصلا ، فيظل عمره عبد مرضاه ، ويظل عمره محتاجاً مسكيناً ! إذا جمع ألفاً احتاج إلى ألفين ، وإذا اجتمعت له الألفان نظر إلى الثلاثة ، وما دامت الأرقام لا تنتهى فإن حسراته لا تنتهى أبداً . وخير من ذلك طبيب جمّله الله بالإحساس وكمله بالعلم وزينه بالقناعة ، فهذا رجل يظل عمره سيداً نافعاً ، وهذا هو الذى يحسب له حساب .

ونحن اليوم ندرس العلم ، بل ما نظن أن بلداً فى مثل ظروفنا يبذل فى سبيل العلم قدر ما نبذل ، ونحن نفعل ذلك مدفوعين بخصلة فينا تشبه الغريزة ، خصلة الاتجاه نحو العلم والنور . وبقى أن نعرف أن رسالتنا الحقيقية فى ذلك الميدان ليست رسالة متابعة أو ملاحقة بل رسالة قيادة ، فقد رأيت أننا كنا فى معظم أيامنا فى مقدمة أهل الدنيا علماً وفهماً ، وأن العالم مدين لنا بالكثير جداً ، فلا ينبغى أن نقنع بما كان ، بل ينبغى أن نؤيده بما هو كائن ، وما سيكون . وإذا كان غيرنا يقنع من العلم بتحصيل ما بلغه غيره فى ميدانه ، فإن واجبنا نحن كمصريين أن لا نقف عند هذا الحد ، وإنما ينبغى أن نتخطاه إلى الابتكار والتجديد والقيادة والتعليم . ذلك ما يمليه علينا تاريخنا وماضينا ، وذلك هو ما لا ينبغى أن ننصرف عنه بحال .

ومن غريب ظواهر تاريخنا أننا أدركنا بالفطرة الهادية هذه الحقيقة ، فلم نكد نصل إلى شيء من العلم حتى نصبنا غيرنا مصلحين ، وحتى أخذنا نبعث بعوث المدرسين شرقاً وغرباً وجنوباً ، حتى لقد علـّمنا فى البلاد المحيطة بنا أضعاف ما علم الإنجليز مثلا ، وهم يزعمون أنهم ما دخلوا هذه البلاد إلا مرشدين ، ولكن العبرة ليست بما يقولون ، بل بما يفعلون .

ونحن نؤدى هذا الواجب إلى ما حولنا من الأمم التى تربطنا بها وشائج الحضارة واللغة والدين ، أو الدين فحسب ، أو التى تجمعنا وإياها المواطنة فى القارة الإفريقية ، نحن نؤدى هذا الواجب متابعين لرسالتنا التقليدية الخالدة ، فنحن نشعر بالسعادة إذ نتعاون مع غيرنا فى طريق النور .

وعلينا الآن أن نجعل هذا الجانب من رسالتنا واجباً مفروضاً علينا ، وأن نقوم به عن نفس راضية ، لأن بلدنا كان على طول تاريخه قوة حضارية ، فلا ينبغى أن يفقد هذا الجانب من القوة أبداً . وإن قارئ التاريخ البشرى ليفتح كتابه فيجد مصر فى المطلع ! يجد مصر فى مقدمة ركب النور ، وهذا شيء ليس بالقليل ، ولكن الذى يقلل من أهميته أننا لا نقدره قدره فى بعض الأحيان ، وأننا ننسى أن ذلك يفرض علينا متابعته والاستمرار فيه ، لأنه صميم رسالتنا فى هذا الوجود .

وعلينا أن نحقق هذا الجانب من رسالتنا فى أبعاد تاريخنا الثلاثة :

فى القارة الإفريقية وفى عالم الشرق وعالم الغرب أيضاً .

وقد يحسب البعض أننى أغالى عندما أقول إن حدود رسالتنا العلمية هذه ينبغى أن تشمل الغرب أيضاً ، لأن الظاهر الذى يراه كل الناس أننا لا نملك شيئاً نقدمه للغرب فى هذا الميدان ، والواقع أننا إذا تابعنا جهدنا فيه ، وأخلصنا له الإخلاص الواجب بلغنا فيه المبلغ الذى ينصبنا معلمين لعالم الغرب . ولقد بلغت أمة فى مثل ظروفنا هذا المبلغ ، وهى أمة الهند ، فقد كانت الهند إلى أمد قريب فى عداد الأمم الميئوس منها فى هذه الناحية ، ولكن الهنود لم يحفلوا لما يقوله غيرهم ، ولم ينسوا رسالتهم هذه أبداً ، فكانوا إذا طلبوا العلم طلبوه فى إخلاص بالغ وتعمق شامل ، وكانوا إذا قصدوا معاهد انجلترا للدرس والبحث ، أقبلوا على ذلك فى حماس تشوبه قدسية تمس النفس ، فما هى إلا سنوات حتى نجم فيهم العلماء فى كل ميدان ، وحتى برزوا إلى الميدان الدولى فإذا هم فى المقدمة ، وإذا أسماء نفر منهم تملأ البصائر والأسماع ، وإذا هم أمة قائدة تسير مع أمم الطليعة .

والسر فى ذلك كما قلت لك أنهم أقبلوا على العلم بشعور بالغ من التقديس ، ولم يدرسوه ليكسبوا به العيش ، بل ليصلوا به ما انقطع من رسالة أمتهم ذات الماضى المجيد . وفى أوروبا أمم أعرق منهم فى ميدان العلم ، ولكنها لم تبلغ شأوهم ، لأنها لم تقبل عليه بهذا التقديس .

وفى هذه الطريق ينبغى أن نسير ، ينبغى أن نقبل على العلم بقلوبنا وعقولنا معاً ، وألا ننسى أننا نحقق بذلك رسالة بلدنا الكبرى ، وأننا لا ينبغى أن نقف عند حد التعلم، بل نخطو إلى ما وراء ذلك ، وهذا التفوق الذى أدركته أوروبا فى ذلك الميدان يمكننا ملاحقتها فيه ، فالمسألة مسألة درس وتحصيل وإخلاص وصبر وتقديس للعلم . فإذا نحن درسنا على ذلك الأسلوب لم نلبث أن ندرك شأو غيرنا ، وانفتح أمامنا طريق السبق والتفوق . ولو أن عشرة منا فحسب توفروا عن إخلاص لدراسة كل ميدان من ميادين العلم ، لما انقضت سنوات إلا ونحن فى المقدمة . والغرب اليوم فى حاجة إلى من يعينه ، لأن حضارته سابقت الزمان على نحو لم يكن فى الحسبان ، فوقعت فى أزمة كبرى . ذلك أن تفجير الذرة كان ينبغى ألا يحدث اليوم ، والعالم حافل بالأحقاد والعداوة ، كان ينبغى أن ينتظر حتى يرتفع مستوى المعنويات فى الدنيا ، حتى لا يكون ذلك الكشف العظيم أداة دمار . والغرب كله اليوم يقف أمام هذه المعضلة ، وكل معسكر من معسكراته يخشى أن يلجأ الآخرون إلى استعمال سلاح الذرة ، ولهذا فهم يتلاقون ويتباحثون ويتدارسون ، علهم ينتهوا إلى مخرج ، وما نظن أنهم واصلون إلى المخرج الصحيح .

وهذا الموقف يحدد لنا رسالتنا فى الناحية الغربية فى ميدان العلم ، فعلينا أولا أن نصل إلى ما وصلوا إليه فى ميدان الطبيعة والرياضيات ، وعلينا

بعد ذلك أن نشترك معهم فى البحث عن المخرج من هذا الموقف المخيف ، ونحن حقيقون بأن نفعل ذلك ، لو آمنا برسالتنا على النحو الذى بيناه واستخلصناه من صحائف التاريخ .

ولقد وقفت طويلا عند كلامى عن علاقتنا بالبحر الأبيض والغرب ، ولم يكن لى من هدف إلا أن أجلو هذه الناحية التى تراكم عليها تراب كثير يحول بيننا وبين إدراكها على حقيقتها ، وأرجو أن يكون قد استقر فى ذهن القارئ أن لنا مكاناً خاصاً فى عالم البحر الأبيض ، وفى الغرب كله بالتالى ، وأن علينا أن نحتل هذه المكانة إذا أردنا تصحيح اتجاهنا ، وإذا أردنا الخير لهذه الدنيا وأهلها . فإن فراغنا فى عالم البحر الأبيض لن يملأه غيرنا ، فنحن ملتقى الشرق بالغرب ، ونحن نقطة الاتصال بين قارات ثلاث ، ونحن وحدنا نستطيع أن نقوم رسلا بين الجانبين ، وننقل الخيرات بين هذا وذاك : نحن باب إفريقية ، ننقل إلى أهلها ما لدينا وما لدى غيرنا ، ونصل به إلى نواحى هذه القارة المظلومة التى لم ينصفها أحد .

ولقد أقام الأوروبيون سدوداً وقيوداً فى هذه القارة ، وحسبوا أنهم يوجهون تاريخها وحضارتها فى الوجهة التى يحبون ، ولكن أهل القارة لا يريدون ، وهم يتجهون إلينا ويأخذون عنا ، أو قل هم يودون أن يفعلوا ذلك لو أتيحت لهم الظروف ، فمن واجبنا أن نسعى إليهم ، من واجبنا أن نحمل النور إلى بلادهم ، فإن حضارتهم هى حضارتنا ، ومستقبلهم

مستقبلنا . ومصيرنا آخر الأمر سيتقرر فى إفريقية ، لأننا لا يمكن أن نتجاهل الحقيقة الأساسية الكبرى فى جغرافية بلادنا ، وهى إننا دولة إفريقية . نحن لسنا من الشرق ولا من الغرب ، وإن كان لنا فى كل منهما نصيب ، ولكننا إفريقيون ، وإذا اختل التوازن فى هذه القارة كان الوبال علينا ، فلنكن على الأهبة دائماً ، ولنذكر دائماً أن آسيا وأوروبا لن تقررا مصيرنا ، بل إفريقية هى التى ستقرره ، وأريد أن أقول بذلك إن الأوضاع فى إفريقية هى التى ستقرره ، فينبغى ألا ننسى ذلك أبداً .

وإذن فواجبنا الأول هو أن نحافظ على حدودنا الحضارية فى القارة الإفريقية ، ينبغى أن نمهد طريق الحضارة بيننا وبين ناحية الغرب والجنوب الغربى والجنوب ، ينبغى أن نجدد صلاتنا بأقاليم السنغال والكونغو وساحل العاج وساحل الذهب وما صاقبها ، فهذه كلها بلاد يشملها نطاقنا الحضارى ، ولا ينبغى أبداً أن نتخلى عن حدود هذا النطاق . إنه مجالنا الحيوى ، وذلك ينطبق بطبيعة الحال على وادى النيل إلى منابعه ، وإلى ما يلى هذه المنابع من بلاد هى فى أشد الحاجة إلى ما نحمله إليها .

وأنا لا أتحدث الآن عن السياسة ، أى أننى لا أضع حدود رسالتنا السياسية فى إفريقية ، فهذا موضوع آخر ، ولكنى أضع حدود رسالتنا العلمية ، وهى فى عرفى أثبت أساس يمكن أن تقوم عليه السياسات ، وهى — كما رأيت — لباب تاريخنا وخلاصته ، وفى ذلك الميدان أقول إن رسالة

مصر فى القارة الإفريقية لا تعرف حدوداً ، فلننشر النور فى كل مكان من إفريقية نستطيع أن نصل إليه بالنور .

ولنفهم أن تلك الرسالة ليست فرضاً على الدولة وحدها بل على المواطنين جميعاً . ليدرك كل منا أن عليه أن يؤدى نصيبه من الكفاح فى سبيل إفريقية ، ليخرج من يستطيع منا مجاهداً فى سبيل العلم دون أن يفكر فى مصير نفسه ، فإن المجاهد فى سبيل العلم قلما تصيبه المعاطب . ولو أنك عرفت ما يبذله غيرنا لكسب المعركة الإفريقية لملكك العجب ، لو أنك تجولت فى نواحى الصحراء وفى غضون الغابات لوجدت ناساً من أولئك الأوربيين يعملون فى جد للفوز بنصيب من هذه المعركة : هذا يعلم وذاك يطبب وغيرهما ينشر الدين. وهم لا يفعلون ذلك إخلاصاً للعلم أو خدمة للطب أو تقديساً للدين ، بل يفعلونه لأنهم يريدون أن يوسعوا النطاق الحضارى لبلادهم ، وهم واثقون أن هذا النطاق الحضارى إذا اتسع رحب معه أيضاً ميدان النفوذ السياسى . والكثيرون جداً من أولئك المغامرين الأوروبيين ليسوا مرسلين من حكوماتهم أو أديرتهم ، وليسوا مؤيدين بالمال والمدد ، وإنما هم مستقلون بأنفسهم ، يؤدون الواجب نحو بلادهم فى صمت وصبر . وإذا أنت قرأت تواريخ المستكشفين لرأيت عجباً من قوم يترامون على المهالك ويتسابقون إلى المعاطب فى سبيل كشف واحة أو العثور على طريق ! وهؤلاء الأفراد القلائل الذين تجردوا للكشف والبحث

هم الذين أقاموا حدود الإمبراطورية الأوروبية فى إفريقية . ونحن نقرأ سير ستانلى وليفنجستون وبروس وهورنيمان وبارث وكاييه ، ونحسب أن ذلك كله جهاد دفع إليه حب المغامرة، والواقع أن أولئك الكاشفين جميعاً كان يدفعهم ذلك الدافع الذى أشرت إليه : دافع البحث عن حدود حضارية أوسع لبلادهم .

وقد وضع أجدادنا حدوداً حضارية واسعة لبلادنا فى إفريقية ، فعلينا أن نصل إلى هذه الحدود ، وإذا كانت ظروف السياسة تحول بيننا وبين الوصول إلى قلب القارة فليتجرد كل منا للخروج لأداء هذه الرسالة لحسابه الخاص ، ليتجرد للجهاد فى سبيل العلم والنور فى إفريقية ، ليخرج مجاهداً وحده ، ليحمل متاعه وكتبه وليتسلل وحده إلى ركن من أركان إفريقية ، وينصب نفسه معلماً أو طبيباً ، لأن القارة فى حاجة إلى كل شىء ، وكما رسم أجدادنا حدودنا الحضارية فى إفريقية أفراداً فعلينا أن نجدد رسمها أفراداً أيضاً ، علينا أن نؤيد جهد الدولة بما نستطيع ، فنحن إذا اطمأننا على حدودنا الحضارية فى إفريقية ، وإذا وجهنا العلم فيها فى الطريق الذى ينبغى أن يسير فيه لخير أهل القارة ، ثبتنا بذلك حدود مستقبلنا ، وضمنا ألا تنقلب علينا الأمور فى قارتنا .

وإنه لمن العجيب أن أشعة النور الخارجة من بلادنا تصل دائماً إلى أبعد مما نقدر ، فإن المصريين هم الذين نشروا الإسلام فى السودان على

ما قلناه ، ووصلوا به إلى كردفان ونواحى الغرب المفضية إلى بلاد الغرب الإفريقى ، واجتمع نفر من أهل السودان الذين درسوا فى مصر ، وأقاموا مسجداً فى الفاشر ، فتصور أن هذا المسجد يعتبر اليوم أعظم مركز لنشر الإسلام فى إفريقية ! تصور أن عشرات الألوف دخلوا الإسلام فى صحنه أو على يد شيوخه ! تصور أن هذا المسجد الذى أنشأه الإيمان قد قام وحده بأضعاف ما قامت به جماعات التبشير مجتمعة ! تصور لو أننا ضاعفنا جهدنا فى هذه الناحية ، وأنشأنا بجهدنا الفردى زوايا صغيرة فى قلب القارة ومضينا نعلم وننشر رسالتنا ! لو أننا فعلنا ذلك لوصلنا إلى مدى بعيد ، ولحققنا شيئاً يشبه المعجزة ، لأن مصير القارة الإفريقية كلها فى الميزان ، ومصيرنا نحن أيضاً فى الميزان تبعاً لذلك . . .

ذلك أن الدين والسياسة يشد أحدهما أزر الآخر فى معركة إفريقية ، والكنائس ووزارات الخارجية والمستعمرات تعمل اليوم جاهدة لكسب المعركة الإفريقية ، وهى قد بدأت فسدت الطرق التى يفيض منها نور الإسلام إلى نواحى القارة ، وهى واثقة أنها إذا فعلت ذلك أوقفت تيار الحضارة المصرية ، فإذا فعلت ذلك خلا لها الجو لتفعل ما تريد . وإنه لمن المحزن أن تسمع ما أعلنته الكنيسة الكاثوليكية فى العام الماضى من أن عدد من تنصر على أيدى رجالها خلال نصف القرن المنقضى بلغ خمسة عشر مليوناً من السود ، فإذا أنت تصورت هذا العدد فى سنة ٢٠٠٠ مثلا

لرأيت أنه سيبلغ الستين أو السبعين مليوناً ، أى أن الغالبية فى إفريقية ستكون لأولئك المتنصرين ، وأنا لا أنظر إلى وجه الخطورة الدينية فى هذه المسألة فحسب . بل أنظر إلى وجهها الحضارى السياسى ، لأن أولئك جميعاً سيكونون أتباعاً لجبهة أخرى تعادينا ، ومن واجبنا أن نتنبه لذلك منذ الآن . .

علينا إذن أن نضع المعركة الإفريقية فى المقدمة ، وعلينا أن نصمم على كسبها ، وأن يتجرد كل منا للقيام بدوره فيها ، وقد رسمت الخطوط العامة لذلك كله ، وفيه كفاية فى المجال المقدر لنا فى هذا الكتاب .

* * *

أما رسالتنا ناحية الشرق فواضحة المعالم ، ونحن مدركون لها محققون لجوانبها والحمد لله . فهؤلاء هم أبناؤنا يحملون النور إلى كل ركن من أركان هذا العالم العربى ، وها نحن لا ندخر وسعاً فى سبيل التعاون مع إخواننا العرب ، للوصول بنا وبهم إلى حيث نحب ويحبون .

بيد أن طبيعة رسالتنا فى العالم العربى تختلف بعض الشىء عن طبيعة رسالتنا فى إفريقية . فنحن فى الميدان الثانى نجدد طريقاً قديماً ونفتح طرقاً جديدة ، ونرمى إلى تغيير اتجاه القارة الإفريقية ، لننجو بأهلها مما يدبر لهم ، ولكى نمهد هذه القارة لأبنائها ليعيشوا فى ربوعها فى سلام ، ولنطمئن نحن أيضاً إلى حدودنا فى كل ناحية . أما رسالتنا فى العالم العربى

فسبيلها واضحة وأهدافها ظاهرة : نحن نرجو أن يتحد ذلك العالم ويكون جبهة حضارية سياسية واحدة ، لأن الصراع العالمى اليوم صراع جبهات وكتل لا صراع دول ووحدات ، وأى دولة تنفرد بنفسها أو تنحرف عن طريقها أصابها العطب ، حتى أمريكا على ضخامتها وقوتها تحاول أن تتحد مع غيرها وتستعين به لتشد جبهتها فى ذلك النضال ، فما بالك بنا نحن ؟ ثم إننا ينبغى ألا ننسى أن سبيل القوة الوحيد لنا جميعاً هو أن نتحد وأن نتآخى ، وأن نبدو للعالم كله جبهة لا تشوبها ثغرة . نعم ، فإذا انفصلت دولة من دولنا ، وأغراها غيرنا بهذا الكسب أو ذاك ، أو خدع رجال السياسة فيها بنظريات فى الاستراتيجية والسياسة الدولية تقول إنها فى حاجة إلى أن تتحد مع الدولة الفلانية أو العلانية ، إذا جازت هذه الحيلة وانفصلت هذه الدولة ودخلت فى نطاق جديد ، فقد تخلت عن قواعدها الحقيقية وانحرفت عن طريقها وتعرضت للأخطار .

ولهذا فنحن نسعى إلى الإبقاء على هذا العالم العربى متحداً لخيره ولخيرنا ، كجزء من أجزائه ، وبديهى أننا لا نرجو بعد ذلك شيئاً ، وحسبنا أن نضم إلى صفوفنا أخواتنا العربيات ونسير معها فى طريق واحد كالبنيان المرصوص .

* * *

ولقد كانت حدودنا فى ناحية المشرق تنتهى عند حدود العالم العربى

فى عصر الاحتلال ، ولكن هذه الحدود قد اتسعت وأخذت صورة أخرى فى عهد الاستقلال . فقد دخلنا فى ميدان السياسة العالمية بمعناها الواسع ، وأصبحت جبهة كفاحنا هى الدنيا كلها ، ومن ثم فقد أصبح لزاماً علينا أن نضم إلينا الأصدقاء والأحلاف فى كل ناحية حتى نستطيع الثبات فى الميدان .

وقد وجدنا الميدان فسيحاً أمامنا ناحية الشرق ، فهناك الأمم التى تشبهنا فى ظروف التاريخ ويجمعنا إليها كفاح الاستعمار ، وربما ربطتنا بها رابطة الدين . ومن هنا فليس بعجيب أن نجد ذراع السياسة المصرية تمتد ناحية الشرق حتى تصل إلى الفيليبين ، فتعقد الخناصر مع باكستان والهند وإندونيسيا ، بل تمتد إلى ما وراء ذلك ، فتسعى لتصافح جماعات المسلمين فى الصين .

وسنقف لحظة عند علاقتنا بالهند ، لأنها تبدو لنا وكأنها من أهم نقط الارتكاز التى تقوم عليها رسالتنا اليوم فى آسيا .

وليس من قبيل المصادفات العابرة أن تتفق مصر والهند ، وأن يكون لهما فى السياسة العالمية اتجاه واحد ، هو الذى يؤدى إلى السلام بلا دوران أو التواء . . .

فإن هذين البلدين يمثلان أقدم حضارتين عرفهما التاريخ . . وكل منهما يعتبر مركز الناحية التى يقوم فيها ، فالهند مركز آسيا الوسطى ،

ومصر مركز الشرق الأوسط .

وكلا البلدين يشعر أن العالم مدين له بنصيب كبير من تراثه الحضارى ولو أنك تناولت أى مظهر من مظاهر الحضارة العالمية اليوم لوجدت فيه آثار المصريين والهنود جنباً إلى جنب . . .

كلاهما عاصر الدهر عشرات القرون ، ورأى من ويلات الزمان ما لم يره غيره ، وعرف أن ألد أعداء المدنية والإنسانية هى الحروب . . .

كلاهما قاسى من الاستعمار ، ومن الارتباط بعجلات الغير ، ومن عدوان الغرب ما تنوء به الجبال . . .

كلاهما يشعر أنه ليس مجرد أمة من الأمم ، همها أن تفوز بالمال من الجيران والأحلاف والاستمتاع بخيرات الدنيا وإن كان ذلك على حساب الكرامة .

وكلاهما فى دور إنشاء ونهوض بالإنتاج ، ولو أن الحرب قامت اليوم لكانت خسارة مصر والهند أكبر من خسارة أية دولة أخرى ، لأن هذه المشروعات كلها إذا قطعت اليوم تكلفنا أضعاف أضعاف ما أنفقناه عليها ، لتقوم على قدميها من جديد . . .

لهذا كله تتلاقى مصر والهند ، ويتصافى جواهر لال نهرو وجمال عبد الناصر ، ويكونان كتلة تبشر فى العالم برسالة السلام الصادق .

وهناك أمم كثيرة فى مثل ظروف مصر والهند ، ولكنها لم تفهم بعد مغزى هذه الفلسفة الجديدة ، وحسبت أنه من البلاهة أن ترفض دولة صغيرة معاونات دولة كبيرة لمجرد الاستمساك بشيء اسمه السلام ، وشيء آخر اسمه الاستقلال . . .

نعم ، وحسبت هذه الدول أن الذكاء يتطلب منها أن تقبل ، وأنه يفرض عليها أن توقع المعاهدات ، وأن العبرة بما فى يدك اليوم . . . أما أحاديث السلام والاستقلال فأوهام لا تنطلى على الأذكياء !

وهذه الأمم تنسى أن عمر هذه الدنيا ليس عاماً واحداً ، وأننا لم نولد بالأمس ، ولا نستطيع لهذا أن ننسى خمسة آلاف عام من تاريخنا ، لا نستطيع أن نستبدل تجارب هذه الآلاف من السنين بوميض عابر من ذكاء سياسى انجليزى أو أمريكى . . .

لا نستطيع ولا تستطيع الهند ، أن نبيع ماضينا أو ماضيها الطويل بأوراق نقدية مطبوعة فى « واشنطن » أو « لندن » مهما كان وراء هذه الأوراق من رصيد الذهب . . . لأن أوراقنا نحن – وهى حضارة الدنيا – وراءها الرصيد الأكبر : الإنسانية . . .

ورجل مثل جمال عبد الناصر يشعر فى أعماق نفسه أنه يمثل بضعة آلاف سنة من تجارب البشر ، ورجل مثل جواهر لال نهرو يحس بكيانه

كله أنه يمثل بضعة آلاف من السنين من فلسفات البشر . . .

رجلان كهذين لا يستطيعان أن يجلسا مجلس التلميذ من رجال وضع لهم فيلسوف مهووس يسمى « كارل ماركس » دستور الحياة ، ومن رجال آخرين حصيلتهم الحضارية بضعة كتب قرأوها فى المدرسة ، وظنوا أنهم بذلك أذكى وأعلم من الآخرين !

إننا لا نقول هذا سخرية من أحد ، لأننا لا يمكن أن نسخر من أحد . . . والذى يؤمن بالسلام ، ويدعو للسلام ، لابد أن يحب البشر حباً يجعله يصفح وينسى ويفتح قلبه فى كل حين . . .

ونحن لهذا نصفح وننسى ونفتح قلوبنا . . .

ونحن لهذا ننصح ونرشد ونتعرض للأذى فى سبيل النصيحة والإرشاد ،.

ونحن لا نجهل أن هناك من يحملون علينا ، كما حمل الناس على أصحاب الرسالات . . .

ولكننا نعرف عن طريق تجاربنا أن الرسالات الكريمة العليا لا بد أن تنتصر ، وأن الذين حاربوها أول الأمر ندموا على حربهم إياها فيما بعد.

ونحن نعرف أننا نحمل إلى من حولنا رسالة خير وسلام . . .

ونحن ننادى بها ونتعرض للأذى فى سبيلها ... ولا نشك لحظة واحدة فى أن النصر فى آخر الأمر لها .

ومثلنا الهند . . .

إنها بين التيارات والنيران ، إنها بين العواصف والزوابع . . ولكن قائدها جواهر لال نهرو يسير على ضوء عشرة آلاف سنة من حكمة البشر . . . وهذا الضوء يجعله يرى أكثر من غيره ، يجعله يبصر أبعد مما يرون فى « لندن » و « موسكو » و « واشنطن » . . .

لهذا نحن نتلاقى ونتصادق ونتصافى .

لهذا يتعانق نهرو وعبد الناصر . . .

ومن بعد آلاف الأميال تصب مياه النهر المقدس « الجانج » . . . فى نهر مقدس آخر : النيل !

ومن هذا النوع رسالتنا بباكستان ، فهى أخت الهند وقسيمتها فى ذلك المجد العظيم ، وهى أختنا فى الإسلام السمح الكريم ، ورسالتنا ورسالتها فى الحياة واحدة ، وقبل أن تولد باكستان كان رجالها يلمون بالقاهرة ليضعوا الخطط لتحرير بلادهم ، وليس إلى الشك سبيل فى أن جزءاً كبيراً من تاريخ باكستان المعاصر قد كتب فى مصر ، وفى أن جزءاً من تاريخنا المقبل سيكتب فى كراتشى ، ورسالتنا هناك إنسانية حضارية ، وهى استمرار وإكمال لرسالتنا فى بلاد الشرق العربى على ما وصفناه .

وفى أقصى جنوب غربى آسيا تقوم إندونيسيا ، وذراع الإسلام المشرقى ودرعه الحصين ، وكما كتبت فى القاهرة فصول من قصة تحرير الباكستان فكذلك الحال مع إندونيسيا . ورجال هذا البلد الإسلامى العظيم ينظرون

إلى القاهرة كمعقل من معاقل الحرية والجهاد : لقد تأيد ذلك عندما ذهب الرئيس جمال عبد الناصر وبشر برسالة السلام والحرية فى باندونج وجاكارتا وعند ما حضر الدكتور سوكارنو إلى مصر ونادى بالحرية والاتحاد فى سبيل السلام .

* * *

ولا يتسع المجال لتتبع رسالة مصر فى الشرق بلداً بلداً ، وإنما يكفى أن نقول إنها تتلخص فى عبارة واحدة : السلام . ولقد أجمل رئيسنا جمال عبد الناصر ذلك أحسن إجمال فى ذلك البيان الذى أذاعه مع زعيم السلام جواهر لال نهرو . لقد ألقيا على العالم درساً ، ووجهاه وجهة جديدة ورسما خطوط المستقبل كما تتصوره الأمم ذات الرسالات : خطوطاً من النور والسلام .

لقد كانت رسالة مصر فى العهد الماضى هى الكفاح لتحرير نفسها أولا ، فأما وقد وصلت إلى هذا التحرير على يد أبطال هذه الثورة ، فإن رسالتها قد أصبحت عالمية ، وهى لا ترمى إلى شىء غير السلام لنا وللآخرين ، والنور لنا وللآخرين .

إن مصر اليوم فى طريق عظيم ، وهى تستطيع إذا استمسكت بحدود رسالة السلام أن تحقق للعالم كله ولنفسها خيراً عظيما ، تستطيع أن تهدى وتعلم وترشد ، تستطيع أن ترفع راية المحبة والسلام على ربى أرض البشر .

١٤٩

إن أسعد الناس فى الدنيا هم الذين جعل الله حياتهم سبيلا لخير الآخرين ، وأعظمهم هم الذين حملهم الله رسالة الخير والمحبة والنور. ونحن بحمد الله من هذا الفريق . فلنذكر أن هذه نعمة كبرى من الله ، ولنذكر أن على المرء أن يؤدى حق النعم بالعمل والجهد والكفاح والإيثار.. وهذه هى أدواتنا فى تحقيق رسالتنا الكبرى : النور والسلام !

الفهرس

مقدمة : بقلة الرئيس جمال عبد الناصر ٥

الأبعاد الثلاثة لتاريخ مصر ٩

مصر وإفريقية ٢٨

مصر والبحر الأبيض ٤٨

مصر والشرق ١٠٠

رسالة مصر : نور وسلام ١٢٢

